

التَّيْبَةُ مِنْ جَدِّكَ

فَايْزُبْنَ سَعِيدَ الرَّهْرَانِي

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الرابعة ١٤٤٠ هـ

ح داررسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز سعيد صالح

التربية من جديد. / فايز سعيد صالح الزهراني - الرياض،

١٤٣٩ هـ

ص ٢١ × ١٤؛ ٢٤٤ سم

ردمك: ١-٥-٩٠٦٥٩-٦٠٣-٩٧٨

١- التربية - نظرات

أ. العنوان

١٤٣٩/٢٠٤٦

ديوي ١, ٣٧٠

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٠٤٦

ردمك: ١-٥-٩٠٦٥٩-٦٠٣-٩٧٨



مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على النبي المصطفى، وبعد..

فإني أشكر الله تعالى إذ استجاب دعائي بأن يجعل لهذا الكتاب قبولاً حسناً في محاضن التربية ولدى القائمين عليها، وهذا محض كرم رباني كعاداته سبحانه في الجود والكرم على من ليسوا أهلاً، وهو أهلٌ أن يُحمد ويشكر على سابغ أفضاله، فهذا هو كتاب (التربية من جديد) يصدر في طبعته الرابعة بعد عام على نشره في طبعته الأولى، وهذا يعني لي الشيء الكثير.

ومما يعنيه: اهتمام الإخوة والأخوات من أهل التعليم والتربية والدعوة بمضامين الكتاب وإجاباته عن الأسئلة المحورية المطروحة في مقدمته، والتي لامست بؤرة الاهتمامات في العمل التربوي. وبغض النظر عن مستوى موافقتهم لما يطرح أو عدمها؛ فإنَّ اهتمامهم الجاد بالإجابة عن أسئلة التربية دليل على مستوى الوعي والجدية في التناول الفكري للقضايا التربوية، ويدل أيضاً على أهمية الالتفات إلى الثغرات الفكرية في العمل التربوي وتناولها بالبحث والنقاش.

وكان مما تكرر قوله لي - على سبيل الاستدراك - أنَّ الكتاب يكاد يخلو من التطبيقات التربوية التي من شأنها أن تضع القارئ في صورة

أبسط للمعلومة وتساعده على تطبيقها في واقعه التربوي، فأحب أن أعرض للقارئ الكريم وجهة نظري في هذه المسألة، وهي أن الأمثلة التطبيقية تختزل الفكرة في بعض زواياها، وهذا مشاهد وملحوظ، وطبيعة الكتاب تقتضي قراءته بشكل تحليلي، يستعمل فيه القارئ عقله بدرجة عالية من الوعي، ويمسك قلمه للتعليق والتعقيب والاستدراك والنقاش وطرح الأسئلة المتولدة عن القراءة التحليلية، كل ذلك لأجل تحييد الصور الذهنية الغالبة والتي من شأنها أن تؤثر سلباً على الفكرة العامة، ولربما احتاج في بعض مباحثه إلى مدارسة بين عدد من القراء للوصول إلى نتائج أفضل في تحويل المفاهيم إلى واقع ملموس.

وهنا أود أن أشكر القراء الكرام الذين اتصل بي كثير منهم لمناقشة مسائل الكتاب ومراجعتها، كما أنه إلى أن هذه الطبعة ليس فيها إضافة سوى تصحيح بعض الأخطاء الفنية والإملائية، سائلاً الله تعالى أن يكتب على أيدينا جميعاً التوفيق والنفع والخير.

المؤلف

٩ شعبان ١٤٤٠هـ

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين
وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه الغرِّ الميامين. وبعد:

قد أكون مصيبًا حين أزعَمُ أنَّ عددًا من المهتمين بالشأن التربوي
تَحَفَّزَ لديهم التفكير الاستقصائي، وثارَت لديهم أسئلة: كيف؟
ولماذا؟... حين استعرضوا عددًا من الكتب الجديدة في معرض
الكتاب الدولي الذي أُقيم في مدينة الرياض ١٤٣٧هـ، والتي
تناقش وتعالج مشكلة الإلحاد والشكوك العقدية. لقد فوجئوا بأنَّ
عدد تلك الكتب فاق الثلاثين كتابًا!

لعلهم باتوا يتساءلون: ما الذي جعل هؤلاء المؤلفين يهتمون
بمعالجة مشكلة الإلحاد والشكوك في مجتمع راسخ في العقيدة؟
ولماذا لم يظهر هذا الاهتمام الملحوظ بهذه المشكلة قبل عدد
من السنوات؟

وكيف وصل الحال بهذا المجتمع إلى أننا نحتاج فيه إلى عددٍ من
المؤلفات والمحاضرات والوسائط التي تناقش مشكلة الإلحاد؟
أسئلة مشروعة، وإن جاءت متأخرة!

وينبغي أن تولد هذه الأسئلة أسئلةً أخرى كثيرة ومحاوِر حوارية بين المهتمين بالشأن التربوي، لِيتمكّنوا من المسك بخيوط المشكلة، وليقوموا بالتعامل معها وفق منهجية علمية موضوعية.

ظهورُ هذه المؤلفات يمكن أن نجعله مؤشراً على التغيرات الفكرية والعقدية والثقافية في المجتمع. وقل مثل ذلك في عددٍ من المؤشرات على التغيير الضارب في جسد المجتمع، سواءً كان التغيير إيجابياً أو كان سلبياً، وسواءً كان ذلك في منحاه الثقافي والفكري، أو في منحاه الاجتماعي، أو في منحاه السلوكي، أو في غير ذلك من المناحي.

حين أتحدث عن التغيّرات.. فإنني مُوقِنٌ بأنها ذات شقين: إيجابي وسلبّي. ولست عن هذا أتحدث، إنما أتحدث عن مسألة وجود التغيّر الحقيقي في المجتمع وامتداداته.

وسناقش الكتاب بحول الله - تعالى - ما يتعلق بالشأن التربوي وموقعه من هذه التغيرات والتحوّلات المجتمعية؛ لعله يفتح أفقاً في الاستثمار الأمثل للواقع في إنجاح مسيرة التربية الإسلامية، وهو بمثابة دعوة للمؤثرين من أهل التربية والدعوة إلى أن يواكبوا هذه الحقبة الجديدة في مشاريعهم التربوية، وأن يُخضِعُوا القوالب التربوية ومضامينها للمراجعة والتطوير والتحسين؛ دون المساس بالمنهج والأصول.

العمل التربوي يمثل حصناً من الحصون الصلبة في وجه التيارات الفكرية والأخلاقية الدخيلة، كما يمثل الأمل الحقيقي لدى الدعاة والمصلحين في عتمة الواقع؛ إنه نهر الحياة في صحراء الغي، ومن هنا فإننا نتفاءل كثيراً بجيل صالح في نفسه نافع لأمته، إذا ثبتنا ورفعنا سقف طموحنا، ثم أحسن العمل وجودنا تقنياته، لذا وجب علينا مؤازرته بالأطروحات والحوارات البناءة، والتي يأتي هذا الكتاب كمحاولة متواضعة في هذا الإطار.

وسيناقدش الكتاب عددًا من المباحث:

المبحث الأول: الجيل الجديد. وسيعرض الكتاب في هذا المبحث عددًا من المسوّغات التي تستدعي تغيير القوالب التربوية والمضامين أحياناً. وهي مسوغات تجيب عن السؤال المهم: هل هذه الحقبة التي نعيشها حقبة جديدة، إلى الحد الذي يتطلب تجديدًا في المشاريع التربوية والدعوية؟

المبحث الثاني: الشواهد التاريخية للإبداع الدعوي والتعليمي. وسيعرض الكتاب في هذا المبحث للقارئ شيئاً يسيراً من يقظة الوعي لدى أسلافنا الأماجد تجاه المتغيرات في عصرهم، وخدمتهم الجليلة لأجيال الأمة الإسلامية، من خلال خروجهم من دائرة التفكير المألوفة إلى التجديد في الأدوات والتقنيات،

والمضامين أحياناً. وهو يجيب عن سؤال: هل تأثر العمل للدين بتغير الظروف في التاريخ الإسلامي؟

المبحث الثالث: خطوط عريضة. ويناقش الكتاب في هذا المبحث المعالم والملامح التي ينبغي أن تتصف بها تربيتنا للشباب والفتيات. كما يجيب عن السؤال الآتي: ما أهم معالم التربية المناسبة لهذه الحقبة التي نعيشها اليوم؟

المبحث الرابع: مع المحاضن التربوية. وهو يناقش بعض الرؤى والتصورات التي يجب أن يجليها المحضن التربوي. وهو مبحث يجيب عن السؤال الآتي: ما هي أوجه التحسين الفكرية والمفاهيمية لمحاضننا التربوية؟

المبحث الخامس: ركائز النجاح في المحاضن التربوية. وهذا المبحث يعرض أهم النقاط التي تؤثر في نجاح المحاضن التربوية والتي بحسب توافرها في المحضن التربوي يكون نجاحه وتأثيره. وهو مبحث يجيب عن السؤال الآتي: كيف تكون محاضننا التربوية اليوم مؤثرة وناجحة؟

المبحث السادس: العودة إلى التربية المكيّة. وهو مبحث يناقش جدوى طريقة التربية في العهد المكي لتطبيقها في واقعنا. وهو مبحث يجيب عن السؤال الآتي: كيف نصوغ منهجنا التربوي لهذا الجيل؟

المبحث السابع: المربون في العصر الجديد. وهو مبحث يستعرض أهمّ مواصفات المربي الذي يستطيع أن ينجح في مهمته التربوية في هذا العصر. وهو مبحث يجيب عن سؤال: ما أهم المعايير في صناعة برامج التأهيل والتدريب المقدمة للمربين؟

وفي ختام هذا المدخل أحب أن أشير إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن هذه الورقات جاءت متأخرة، وأشعر بلوم النفس على ذلك، وأستغفر الله ربي، وأعتقد أن الأطروحات في هذا الباب، وفي الشأن التربوي عمومًا لا تكفي لسدّ الاحتياج التربوي. وتربية الجيل الجديد بحاجة ماسّة إلى أطروحات تعالج وتناقش قضاياها، لتقوم المحاضن التربوية بترجمتها عمليًا.

الأمر الثاني: الكتاب يناقش مسألة؛ أعتقد أنها لا تزال تعوزها القراءة النقدية الواعية، وبالتالي فإنه من الممكن الاستدراك والتعقيب والإضافة والتصحيح على هذا الكتاب، فغرضه الأهم بحث الموضوعات التي تضمّنها ووضعها على طاولة القراءة والنقاش. وهي دعوة لفتح أبواب الحوار حولها.

الأمر الثالث: لم أفرد مبحثًا خاصًا بالفتيات ولا بمحاضن البنات؛ لأن الكتاب كله يخاطب المعلمين والمعلمات والمربين والمربيات على حدّ سواء، بغضّ النظر عن آليات التطبيق.

وأخيراً.. أسأل الله العلي الكبير، أن يجعل ما كتبتة خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخراً لي يوم القيامة، وأن يعفو عن زللي ويغفر لي خطأي بأضعاف عدد كلماته وحروفه، وفوق ذلك مما يليق بكرم الرب الرحيم، وأن ينفع به إخواني وأخواتي من المرابين والمربيات، وأن يجعل له في محاضن التربية قبولاً حسناً.. هو ولي ذلك، وهو ملجأى ومُعيني وغاية رجائي.. وكفى به وكيلاً.

وكتبه

فايز بن سعيد الزهراني

Fa2526@hotmail.com

محرم ١٤٣٩ هـ

المبحث الأول: الجيل الجديد

إنَّ الاهتمام بدراسة الواقع، وأوجه المتغيرات وجعلها معطيات للتخطيط التربوي هو عينه التطوير الذي ننشده.

وفي هذا المبحث أودُّ التعرُّض للتغير الاجتماعي والثقافي اللذين حلَّا بمجتمعنا، نتيجة عددٍ من المؤثرات. وهو مبحثٌ يمثل كشفًا واقعيًّا؛ إذ تُمثِّل دراسة الواقع جزءًا أصيلاً في فهمه، ثم هي جزءٌ أصيل من معطيات التخطيط التربوي. وحين تُبنى البرامج والمشاريع الدعوية والتربوية على معطيات صحيحة واقعية، فإنها تقترب من النجاح بقدر ذلك، وحين لا تلتفت إلى دراسة الواقع دراسة علمية موضوعية فإنَّها تتعد عن النجاح بقدر ذلك.

ولذلك فإنَّ هذا المبحث جاء ليُجيب عن السؤال الآتي: هل مجتمع الشباب والناشئة من الجنسين تغير؟

وإذا كانت الإجابة: نعم، فهل التغيُّر الذي وقَّع لمجتمع الشباب يستلزم تغييرًا في البرامج والمشاريع التربوية، كمًّا وكيفًا؟

وما هي هذه الأمور التي تسوِّغ لنا تغيير برامجنا ومشاريعنا التربوية بما يناسب جيل اليوم؟

لقد أجمع الغرب الصليبي أمره، وتحالف مع ضلَّال العالم الإسلامي، وأتوا صفاً واحداً لمحاربة منهج أهل السنة والجماعة، ووفق دراسات وتوصيات، مستخدمين أدوات وتقنيات من شأنها أن

تفعل الأفاعيل. وللأسف! فإن المسلمين اليوم يرزحون تحت نير الاستعمار الثقافي الكبير، والذي يجعلهم سوقاً للبضاعة الثقافية الغربية بشتى أشكالها.

لقد تناولت المؤامرة الغربية كلاً من الإعلام والتعليم والعمل في البلاد الإسلامية كوسائط يتم من خلالها تغريب المجتمع وتنميط أفراده.

(ومن الأمثلة الواقعية ما أعلنته أمريكا عن خطة لتغيير مناهج الدين واللغة والتاريخ في الدول العربية، فيما أعده خبراء سياسيون أمريكيون أطلق عليهم (مجموعة ١٩) من تقرير مهم وخطير، رفعوه إلى جهاز الأمن القومي الأمريكي أسموه: «مفهوم الجوانب النفسية للإرهاب الإسلامي»؛ وأشارت الدراسة إلى أنه في كل خمسة عشر عاماً تظهر مجموعات جديدة من الإرهابيين تحمل خصائص أكثر عنفاً ودموية من المجموعات التي سبقتها، وتخضع هذه الدورة الزمنية إلى خمسة عشر عاماً لعوامل نفسية؛ أولها: القرآن. وإذا كان تغيير القرآن متعذراً عملياً فيمكن من خلال تفسير القرآن تنفيذ المطالب الأمريكية، وذلك بالتحديد في مصر والسعودية.

تقول الدراسة: «نحن لن نستطيع أن نغير من فحوى القرآن، ولكن علينا التدخل لإفراغه من مضمونه». وقد أوصت الدراسة بتوصيات للإدارة الأمريكية، لتنفيذها، ومنها:

١- العمل على أن يظل الدين محصوراً بين الفرد وربه، دون أن يتعرض الأمر إلى أكثر من ذلك. مع السعي لإبعاد المسلمين عن أي دور حضاري أو سياسي أو نضالي.

٢- التدرج في تغيير المناهج التعليمية في البلدان العربية. ومن الضروري تكوين مجموعات طلابية للتعارف والتعاون مع دول العالم الأخرى، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية، ويطلق على هذا البرنامج «برنامج التعاون الجامعي».

وأخيراً تدعو الدراسة إلى ضرورة مقاومة قيام الدولة الدينية في الشرق الأوسط؛ لأنها تُمثّل مرجعاً لنمو التيارات والجماعات الإرهابية، وتبقى إيران والسودان بين الدول التي يجب إسقاط أنظمتها، كما يجب التدخل لإجبار السعوديين على التخلي عن تطبيق الشريعة الدينية في البلاد^(١).

ليس هذا مكان الحديث عن المساعي الغربية في صدّ دعوة الإسلام، وتحديدًا منهج أهل السنة والجماعة؛ فهو موضوع في غاية الوضوح لدى المشتغلين بالتربية والدعوة، أو هكذا ينبغي!
لكن الحديث عن مخرجات هذه المساعي، والتي شكّلت بنفسها معطيات ومسوغات لمسألة التجديد.

(١) بتصرف: العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية، أ. د. وهبة الزحيلي، ص ١١٤.

سأحاول في هذا المبحث أن أجمع شتاتاً من المعطيات التي يعيشها القارئ الكريم في حياته ومحيطه، في المسار الإعلامي تحديداً؛ سيدرك القارئ من خلالها أننا في عصر ربما يصح أن نقول عنه: جديد! يستحق أن تُصنَع البرامج والمشاريع الإبداعية والمناسبة له، وسأُعرضُ عن مساري التعليم والعمل؛ لعدم الحاجة إلى ذلك، فليس المقصود من هذا المبحث سَبْر كل مسارات التغيير، وليس هو دراسة علمية بحثية، وإنما يمثل المبحث هذا استدلالاً جزئياً على مسألة كبيرة؛ هي بحاجة إلى دراسات أعمق وأكثر موضوعية ونقدية، لتوفير معطيات صحيحة ودقيقة.

إعلام مفتوح

في التاسع من ربيع الأول لعام ١٤١٢ هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٩٩١م أطلق مركز تليفزيون الشرق الأوسط MBC أولى قنواته الفضائية، كأول قناة فضائية عربية يمتلكها القطاع الخاص.

وبذلك تكون بدأت مرحلة جديدة من تاريخ التغيير الفكري والغزو الثقافي، والذي يحمل في أدواته قوة هائلة في التأثير والإقناع والتغيير.

لقد تتابع افتتاح القنوات الفضائية ذات التوجه المنحرف، والتي تسعى جاهدة لتنميط المجتمع وفق صورة يصنعها الغرب وأذنابه من المستغربين، تدعو في جوهرها إلى انحلال المجتمع العربي المحافظ، كمجموعة روتانا ومجموعة إي آر تي وغيرها.

وانهالت على بيوت المسلمين المسلسلات التركية والأفلام الأمريكية وعدد هائل من الأفلام المصرية القديمة والحديثة، كما أصبحت الحفلات الغنائية تُذاع على مدار الساعة، ناهيك عن برامج الانحطاط التي تدعو إلى الرذيلة بشكلٍ أو بآخر.

لقد واجه هذا الجيل من قذارة الإعلام ما يمكن تسميته طوفاناً، ولا شيء غير الطوفان، إلى درجة جعلت من هذه القنوات متَّهمة بكسر الصمود الاجتماعي، وإذابة قوته أمام ثقافة الانحلال.

هل تُصدّق أنّ قناة (شو تايم) نشرت في جريدة الأهرام المصرية إعلاناً تعرض فيه للمشارك ٦٠٠ فيلم في الشهر الواحد مقابل اشتراك لا يزيد على أربعة جنيهات مصرية في اليوم الواحد^(١).

ويلاحظ المشاهد للقنوات الفضائية العربية التزايد الكبير في القنوات الفضائية، ففي آخر إحصائيات الأقمار الصناعية لسنة ٢٠١٥م، يوجد في السماء العربية ما لا يقل عن ١٢٣٠ قناة تلفزيونية، منها ١٠٩٧ قناة خاصة، عربية وأجنبية^(٢).

وبالنسبة لمحتواها فإنّ ٦٢٪ من ساعات البث تعتبر (برامج جاهزة) مستوردة ومدبّجة. و٥٥٪ من المحتوى ينحصر في الإنتاج الدرامي والترفيهي والرياضي. و١٤٪ من مساحات البث تخصص للإنتاج التربوي والثقافي، وستضح لك أهمية هذه الأرقام إذا اعتبرنا أن ساعات الإنتاج للقناة الواحدة ٧٠٠٠ ساعة سنوياً^(٣).

ويوجد اليوم في المنطقة العربية ما لا يقل عن ثماني (مدن إعلامية) تُسدي خدمات اتصالية متطورة ومتعددة الاختصاصات، وبها تجهيزات متكاملة وعالية الجودة التقنية لوسائل الإنتاج.

(١) الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم ص ٨٤.

(٢) البث الفضائي العربي، اللجنة العليا للتنسيق بين القنوات الفضائية العربية، ص ٩.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩.

وتعتبر (مدينة دبي للإعلام) أهم بوابة فضائية لبث تلفزيوني متنوع المضامين واللغات، تنطلق منها ما لا يقل عن ٢٠٠ قناة، تشمل أكبر المجموعات الإعلامية العربية والدولية، وتوفّر لهم بالأساس (مدينة إستوديوهات) من أجل استقطاب المؤسسات العالمية والإقليمية لصناعة السينما والدراما، وتقديم وسائل إنتاج في مجال الجرافيك، والتحكم الرقمي لتأثير الشاشات^(١).

في عام ٢٠٠٩م سرّدت برقية سرية للسفارة الأمريكية في السعودية مجريات لقاءات بين دبلوماسيين ومسؤولين إعلاميين في السفارة الأمريكية من جهة، ومسؤولي تحرير ومديري قنوات تلفزيونية من جهة أخرى؛ لمناقشة التوجهات الأيديولوجية وغيرها.

وتحدث في اللقاءات أشخاص عن أهمية الدور الذي تلعبه البرامج والمسلسلات الأمريكية المدبلجة، التي تُبثُّ على قنوات (إم بي سي) في تغيير توجهات وثقافة المجتمع السعودي، بطريقة عجزت عنها الدعاية المباشرة التي تنتهجها قناة الحرة وماكينات الدعاية الأمريكية.

وبحسب أحد المتحدثين السعوديين؛ فإن البرامج الأمريكية التي تبث على قنوات (إم بي سي) هي الأكثر شعبية بين السعوديين، وفي نظرة على الدورة البرمجية لشهر ديسمبر/ كانون

(١) المرجع السابق ص ٤٠.

الأول من ذات السنة، تتبين المساحة التي تحتلها هذه البرامج على مدار اليوم. وأشار إلى مدى تأثير مسلسلات مثل «ربات بيوت يائسات» (Desperate Housewives) وبرنامج ديفيد ليرمان وأصدقاء (Friends) التي بُثَّتْ - مع ترجمة عربية أسفل الشاشة - على الشعب السعودي، فلم تُعدْ ترى في أنحاء المملكة بدوًا، ولكن أطفالًا باللباس الغربي^(١).

نحن اليوم على مسافة تقارب الثماني سنوات عن هذه التقارير؛ حيث تضاعف الجهد ونشأت شبكات التواصل الاجتماعي، وأغرقت الأجهزة الذكية بيوت الناس وعقولهم وقلوبهم.

وإذا سلطنا الضوء على بعض المضامين التي بُثَّتْها هذه القنوات الفاسدة؛ فسيتبين لنا كم هي تنخر في ثقافة المجتمع.

وفي دراسة قدمها باحثون إعلاميون حول القنوات الغنائية في مؤتمر: (الإعلام المعاصر والهوية الوطنية) ٢٠٠٨م في القاهرة، ناقش الباحثون ١٠٠ أغنية عربية كان من نتائج هذه الإحصائية: احتوت هذه الأغاني على (٧٥٧٣) لقطة. منها (٢٠٥٦) لقطة لمشاهد راقصة، و(١٤٠٩) لقطة تركز على المناطق المثيرة، و(١٤٦) لقطة تلامس، (١٢٦) لقطة عناق و... علمًا أن الأغاني

(١) موقع الجزيرة نت، ثقافة وفن، الدراما الأمريكية تغير المجتمع السعودي، الأحد ١٤٣٢/١/١٣هـ.

تمثل ٤٨٪ من محتويات القنوات العربية^(١).

ويقوم د. مالك الأحمد - حفظه الله - بمسح دائم لمضامين القنوات الفضائية، وبيان أثرها على المشاهد والمجتمع، عبر حساباته المتنوعة في وسائل التواصل الاجتماعي. والذي يتابع المسح الذي يقوم به يوقن تماماً أن المجتمع يخضع لحرب غير متكافئة في جانب الثقافة والأفكار والمعتقدات.

كل ذلك يتعلق بالقنوات الفضائية، ولم أتطرق إلى ما صنعتها مواقع الشبكة العنكبوتية والمنتديات الحوارية من تأثير بالغ الخطورة على تمييط التفكير لدى متعاطيها؛ حيث انكبَّ المثقفون والشباب من الجنسين في فترة سابقة على التسجيل فيها وكتابة الموضوعات ومناقشتها؛ مما أحدث حراكاً فكرياً على كافة الأصعدة، ولم أتطرق كذلك إلى حجم الشراء والاقتناء الكبيرين للكتب الحمراء، وكتب الأفكار المخالفة، في معرض الكتاب الدولي بالرياض لكل عام؛ حيث تشير الأرقام والفعاليات المصاحبة إلى وجود توسع في دائرة الثائرين فكرياً وثقافياً على المجتمع المحافظ.

وسأنتقل بشكل مباشر إلى أهم النتائج المنبثقة عن هذا الصراع الفكري والغزو الثقافي الإعلامي:

(١) الإعلام والقيم، ماجد الغامدي، ص ٩٨.

حرية الرأي واعتناق الأفكار:

أحد أبرز المستجدات في العقدين الأخيرين هو سهولة الاطلاع على مختلف الأفكار والمعتقدات والآراء. لقد دلف الشباب إلى سوقٍ هائل من الأفكار، بلا رقيب ولا ضابط. وانتقلت مسؤولية الضبط من السلطة الخارجية إلى سلطة الذات.

في واقع الأمر لم تكن الذات مهياًة بالمعايير الجيدة لضبط الآراء والأفكار والمعتقدات، وذلك يرجع إلى ضعفٍ ملاحظ في بناء الشخصية الشامخة ذات الإرادة القوية. لقد اعتمدت التربية في وقت ماضٍ على ضبط السلطة الخارجية بشكلٍ ربما أحدث ضرراً على الإرادة الذاتية، وتشكَّلت أجيال - في مجملها - تعتمد على رقابة السلطة الخارجية، سواءً تمثلت هذه الرقابة في الحكومة أو المجتمع أو الأسرة أو المحضن التربوي.

وعلى أية حال.. فقد تفاجأت الذات بسبيل من الأفكار والآراء والمعتقدات التي لم تألفها من قبل، بل لم تكن على دراية بها أصلاً. وساهمت - بشكل كبير - المتندياتُ الحوارية في تعاطي هذه الأفكار ومناقشتها؛ لسبب لطيف، وهو اختفاء القارئ والكاتب في هذه المتنديات خلف أسماء وهمية، مما مكن لهما الهروب من السلطة الخارجية، والانطلاق الحر في فضاء الإنترنت المملوء بهذه الأفكار.

وإن كانت السلطة الخارجية قد تمكنت من منع الكتب التي تحمل أفكاراً مرفوضة - أيًا كان نوعها - فإنها لم تستطع حجب الأفكار النّية إلا نزرًا يسيرًا. فانكبَّ الشبابُ من الجنسين يتلقفون الأفكار ويناقشونها ويعتقونها، بشكل خفيّ، ثم تدرّج بهم الأمر من التخفي إلى الظهور في ظل ضحّ ثقافي على مستوى الإعلام والتعليم يدعو إلى الحرية الذاتية.

وأنت اليوم تشاهد المعرّفات الحقيقية التي تحمل أسماء أصحابها على مواقع التواصل الاجتماعي، وهي تكتب أفكارها دون تحفُّظ أو خجل.. باسم حرية الرأي.

وأنت اليوم أمام جيل جديد، لا يرى للسلطة الخارجية حق التحكم في نوع المعتقد والآراء والأفكار التي يعتنقها، ويرى أنها مسائل شخصية بحتة، لا يجوز لأحد التدخل في تشكيلها، ولو كان هذا الأحد من الوالدين. لقد غزا الإلحادُ مجتمع الشباب.

وآخرون كُثُر لم يصلوا إلى مرحلة الإلحاد؛ لكنهم يقعون تحت سيطرة الشكوك؛ حيث انتشار المنتديات الحوارية ثم الميديا اللتين هزّتا العقائد، باسم العلم والثقافة والبحث والاستكشاف.

لقد لمع اسم (داروين) من جديد، بعد أن كان خافتًا لا يُعرف قبل عشرين سنة، إلا من النخب الموغلة في الثقافة والعلم. وعملت

المنتديات الليبرالية على إثارة الشكوك ونشر الإلحاد والاستهانة بالله العظيم والاستخفاف بالرسول الكريم ﷺ حتى قرأنا في مواقع التواصل الاجتماعي صريح الإلحاد وسب الله - تعالى - ورسوله ﷺ من أشخاص مغمورين، وبأسمائهم الحقيقية.

هل تعتقد أن صدور ما يفوق الثلاثين كتاباً، في معرض الكتاب بالرياض لعام ١٤٣٧هـ، تناقش الشباب في مسألة الإلحاد والشكوك، وتحاول إقناعهم بمختلف الوسائل بأن الداروينية خطيئة علمية.. هل تعتقد أن ذلك مجرد صدفة؟ أو ترف علمي؟ كلا والله، بل هو التغير الثقافي.

أمّا الأفكار المتعلقة بتغريب المرأة، فقد انتشرت عبر المواقع الإلكترونية والمنتديات الحوارية والقنوات الفضائية، حتى أصبح عدد كبير من الفتيات يرغبن في التملُّص من القيود الشرعية في العلاقات.. حتى الزواجية منها! لقد كان للمسلسلات الأجنبية دورٌ كبيرٌ في تحريض الفتاة على التمرد على السلطة الخارجية، وتكوين صورة ذهنية سلبية عن الحشمة والعفاف والحياء.

وعلى الجانب السياسي، قام الإعلام بدوره في فتح آفاق السياسة، وأصبح الفرد يتحدث عن رأيه - ولو كان موعلاً في السخافة - في الشأن السياسي الداخلي والخارجي، عبر القنوات

الفضائية والمنتديات الحوارية والمجلات الإلكترونية، وظهرت مسألة الاستقطاب والتحيّز بعد أن أصبح القطب الأوحده والاتجاه الواحد.

فكرة (الرأي والرأي الآخر) و (الاتجاه المعاكس) أوجدت بيئةً حاضنة للتعددية الفكرية وتسويغها في المجتمع والبيت والعمل.

حتى على مستوى الخلاف الفقهي السائغ.. أصبح لدينا ارتباك في تعاطي المسائل الفقهية الفرعية، وأصبح الخلاف أمرًا طبيعيًا، حتى إنك أحيانًا لتستمع إلى الفقيه في برنامج الإفتاء لا يجيب السائل برأيه الفقهي، وإنما يذكر له خلاف العلماء في المسألة، مما يصيب السائل بحالة من التيه؛ كونه عاميًا مقلدًا توّهه من يقلده.

الشباب اليوم يتعرض يوميًا إلى ما لا يصح منه سماعه وقراءته، وتتكون لديه تركيبات مشوّهة عن المفاهيم والتصورات، وهذا يحوّل الأمر إلى سلبية مقيتة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب، في آخر حجة حجها؛ إذ رجعت إليّ عبدُ الرحمن، فقال: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان؟ يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً؛ فوالله

ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت. فغضب عمر، ثم قال: إني إن شاء الله لقاءم العشية في الناس، فمحدّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم. قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين! لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاي الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقاتلتك، ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومنّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة^(١).

شريحة من المقالات والمفاهيم ينبغي أن لا يخوض فيها إلا المتخصصون وأهل العلم بالشأن.. هذا صحيح، لكن الانفتاح المعرفي اليوم ألغى هذه الخاصية، وجعل الشباب في مهبّ الأفكار والآراء.

وقد وجدت التيارات والجماعات ضالتها في ترويج أفكارها عبر فضاء الإنترنت، كالصوفية والرافضية والعقلانية، وكالقاعدة وتنظيم الدولة، وأصبحت عقول شريحة من الشباب مجمعا لأطروحاتها.

(١) أخرجه البخاري ٢٥٧/٤ كتاب الحدود، باب: رجم الحبلي من الزنا إذا أحصنت ح ٦٨٣٠.

أما بعد نشأة شبكات التواصل الاجتماعي.. فحدث ولا حرج! جيل اليوم نشأ على هذا الواقع. أعني حرية الرأي، وهذه الشبكات كالفيسبوك وتويتر وغيرهما تتيح لأيِّ أحد من الناس أن يقول ما يريد، وأن يكتب ما يعتقد، دون أدنى ضابط، وبضغطة من لوحة المفاتيح تبلغ عباراته الآفاق.

العديد من المجالات اكتنفها مسألة حرية الرأي، بفضل الإعلام المفتوح. ولقد ساهمت المنظمات العالمية المعنية ببيِّث الفوضى الفكرية.. ساهمت في حماية هذه النتيجة ونددت بتقييد الأفكار والمعتقدات، وعملت على منع الرقابة عليها، فانتشرت الكتب المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، بل والكتب المخالفة لعقيدة الإسلام.

شريعة الإسلام ترفض نشر وترويج الأفكار والمعتقدات الباطلة، وتجعل سلطة النظام مسؤولةً عن هذا الأمر، وهذا معروف مشهور في الفقه والتاريخ. لكن سلطة النظام اليوم أزاحت عن كاهلها هذا العبء وأوكلته إلى الذات. ورغم رفضنا لهذا الإجراء؛ إلا إنه يجب أن نتعامل معه كواقع مفروض، فلا يصح أن نغمض أعيننا عنه، كما لا يصح أن نستسلم له، وإنما يكون هذا الواقع أحد المعطيات المهمة في تكوين منهج التربية الإسلامية الجديد.

ولست المسألة سلبية في كل اتجاهاتها.

بل العكس هو الصحيح، فلقد وجدت شريحةً من الشباب من الجنسين ضالتهم في طلب العلم الشرعي على أهله المتفنين؛ حيث تمكنت هذه التقنيات من كسر حاجز الجغرافيا، وألغت شرط اللقاء المباشر ليكتفوا بالمتابعة والحضور عبر البث المباشر من خلال الإنترنت. وتفقه كثيرٌ من الشباب وتعلموا أمور دينهم، والتحقوا بحلقات تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما.

وآخرون من الشباب ليسوا طلبة للعلم الشرعي، لكنهم باحثون عن معرفة دينهم مقبلون على عبادة ربهم.. وجدوا في هذا الفضاء الواسع ما يشفي قلوبهم ويمتّع أرواحهم من المواعظ النافعة ويشبع عقولهم من الثقافة الإسلامية الأصيلة.

لقد انتشر التدين في مستويات جيدة بشكل أفقي بين شرائح الشباب.

وآخرون من الشباب ممن ضلّت بهم السبل وشتتهم الأفكار، وجدوا في مواقع التواصل وشبكات الإنترنت ما يجيب عن أسئلتهم الحائرة ويبدد ظلمات التيه التي يتخبطون فيها.

في أول إحصائية سنوية لبرنامج (قراء الجرد) المعني بجرد الكتب قراءةً، والذي انطلق من مواقع التواصل الاجتماعي، كانت

النتيجة أن تمت قراءة ٦ كتب تحوي ٢١ مجلداً هي: معالم السنة النبوية، وتفسير السعدي، ومدارج السالكين، والسيرة النبوية لمحمد الصوياني، وذكريات الشيخ علي الطنطاوي. واستفاد من البرنامج ٣٧٥ قارئاً وقارئة. أما المتابعون لانتقادات ومشاركات القراء فقد فاق عددهم ١٠ آلاف متابع على الإنستجرام، و١٩٠٠ على تويتر. هذا نموذج، والنماذج عديدة.

لقد كان الفضاء الإعلامي والنّثي إيجابياً كذلك. على أيّ حال لقد صنع هذا الفضاء حرية فكرية مهولة.

حرية التعبير والنقد:

لقد كان للنقد فيما مضى من الزمان أدبياته وقوانينه، ولم يكن فيما مضى بهذا الإسفاف، لما يكتنفه من ضبط ومعايرة.

من أهمّ أدبيات النقد: الموضوعية، والنقد بالحجة والبرهان لا بالانطباعات والأهواء، والتمكن العلمي من مجال النقد؛ فلا يصح أن ينتقد الطبيب عالم الشريعة في مسألة شرعية على سبيل المثال. وكان للحديث نقاد متخصصون، وهكذا الحال في الفقه والعقيدة. لقد تميّز النقد في الشريعة الإسلامية بالسمو والموضوعية وصحة الهدف.

وفي ظل الهيمنة الغربية على الثقافة العالمية تسربت إلى مجتمعاتنا حرية النقد وانفلاته من الموضوعية وأدبياته المعروفة،

وصنعت له أدبيات تليق بمستوى الغرب المتدني في الذوق الثقافي. امتلأت الصحف الورقية والإلكترونية بنقد الصغار للكبار، والتافهين للعظماء، حتى أصبح النقد لدى هؤلاء أفضل وسيلة لإسقاط الكبار والعظماء.

ولا شك أن تلك المقالات أحدثت تأثيراً، لكنه لا يزال ضئيلاً لعدد من الأسباب؛ أهمها تفاوت المنابر، أعني أن منابر الكبار كبيرة ومنابر الصغار حقيرة، هذا في نظر المجتمع. كما أن الكبار من أهل العلم والفضل والدعوة كانوا يملكون مواقع على الإنترنت خاصة بهم، وبرامج تلفزيونية كذلك، تتيح لهم توجيه الحديث والتأثير. وكانوا في موقع العلو في نظرة الناس والمجتمع لهم، فلا يزال المجتمع يحتفظ بصورة ذهنية سامية عنهم.

أما بعد نشوء شبكات التواصل الاجتماعي فقد تغير مجرى التأثير! حيث أصبح الكبار والصغار مجرد (مشاركين) في تويتر أو فيسبوك - مثلاً -، وأصبح التافه والعظيم على مستوى واحد من إمكانية الخطاب والتأثير؛ فلكل واحدٍ منهما معرّف، يتساوون في صلاحياته ومسؤولياته. وبالتالي تضاءلت مسألة احترام الكبير وذو الفضل والعالم والمتخصص، وصار بإمكان شاب في مرحلة مبكرة أن ينقد عالمًا أو طالب علم، بمجرد أن يكتب ردًا عليه في حسابه!

في فترة ماضية أصابتنني الحيرة من مسألة بدت غريبة على جاهل مثلي، وهي أن مدينة الكوفة التي اهتمَّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه اهتمامًا بالغًا، وأمر عليها عمار بن ياسر وبعث معه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - معلمًا، وقال: (إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي، فخذوا منه)^(١). وتخرج على مدرسة ابن مسعود فقهاء الإسلام الكبار، وأصبحت الكوفة كعبة للعلم يؤمها طلابه..

هذه المدينة ذاتها هي التي كانت تصدر بعد ذلك الفتن والقتل والشغب على الولاة وأهل الفضل.

تساءلت كيف حدث هذا! حتى وجدت قطعة ذهبية تفسر ذلك.

قال ابن الأثير - رحمه الله - وغيره من المؤرخين في سياق تولية الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن العاص على الكوفة: (وسأل [أي سعيد بن العاص] عن أهل الكوفة، فعرف حال أهلها، فكتب إلى عثمان: أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة. والغالب على تلك البلاد روادف قدمت، وأعراب لحقت، حتى لا يُنظر إلى ذي شرف وبلاء من نابتها ولا نازلتها. [أي استوى الشرفاء والوضعاء ولم يعد للكبار ما تعارف عليه المجتمع من تقدير رأيهم ومكانتهم].

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩١.

فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضلُ أهل السابقة والقدمة، ومن فتح الله عليه تلك البلاد. وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل.

فأرسل سعيدٌ إلى أهل الأيام والقادسية فقال: أنتم وجوه الناس؛ والوجه ينبىء عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة.

وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف. وجعل القراء في سَمَرِه [أي: قربهم منه وجعلهم خاصة له يسامرونه ويستفيدون من علمهم] ^(١).

هذا الإجراء من الخليفة وواليه على الكوفة هو عين السياسة الشرعية وجوهر الحكمة الاجتماعية.

صنفان من المجتمع ينبغي أن يحافظ المجتمع والسلطة على مكانتهما، وفق إجراءات حقيقية: الأعيان والفقهاء. فإذا هبطت قيمتهما الاجتماعية والعلمية تكسرت أبواب الفوضى الفكرية والعبث الاجتماعي. وهذا بالضبط ما أحدثته مواقع التواصل الاجتماعي في المجتمع، حيث تقلصت الفجوة بين الشرفاء والوضعاء لدى الجيل الناشئ، وكذلك بين الجاهل والعالم، وأصبح الجميع على مستوى واحد في سعيد واحد.

(١) الكامل في التاريخ ٥/٣.

الأدهى من ذلك تصاعد وتيرة النقد لتطال رموزاً كالصحابة رضي الله عنهم، وسبَّ بعضهم على مرأى ومسمع من المشاهدين والمستمعين، ورمي التُّهَمُ جزافاً على أئمة الحديث؛ باسم النقد.

ورغم رفضنا لهذا الأمر، إلا أنه أصبح واقعاً، وأصبح الجيل يتعرض لهذه السخافات والطوام على اعتبار وجودها، وعلينا أن نتعامل مع هذا الأمر بموضوعية.

تدنيء مستوى الاحتشام:

لقد عملت القنوات الفضائية الموجهة ذات الطابع الليبرالي على تطبيع العلاقة بين الذكور والإناث، ثم أتاحت المتتديات الحوارية على الإنترنت والماسنجر التواصل بين الجنسين، ثم جاءت مواقع التواصل الاجتماعي لتذيب الجليد الحاجز بين الجنسين.

على مستوى الأسر المنفلتة؛ فإن كثيراً من الفتيات يرون بقاءهن بلا حبيب أو صاحب من الذكور أمراً معيباً، قد يكون سبباً في سخرية الفتيات منهن. أما على مستوى المحافظين فقد ذهبت أجزاء من الحساسية الدينية في التواصل بين الجنسين لأغراض التعلم والدعوة والعمل.. ونحو ذلك.

نحن نشاهد اليوم - بوضوح - رفةً في مسألة احتشام الفتاة، ساعدت عليها الإجراءات الرسمية في التعليم والعمل والإعلام.

وتتدرج هذه الرقّة من سهولة التعامل والتواصل بين الجنسين لأغراض مشروعّة، إلى التواصل بينهما لأغراض غير مشروعّة، وفي كلتا الحالتين نحن أمام جيل جديد تشكّلت لديه ثقافة جديدة، ولديه تقنيات جديدة تسهّل العلاقات المحرّمة إلى درجة كبيرة، ويبقى الوازع الإيماني والدافع القيمي هو المعوّل عليه في الحفاظ على مواقعهم الإيمانية والثبات عليها أمام هذه الثقافة المدعومة بالتقنيات والتقنين.

والخوض في هذه المسألة مؤلم، لكنّ شواهد التغيّر والتحوّل واضحة للعيان.

ومما جلبه الإعلام إلينا من الثقافة الغربية: التفسير الغربي للغرائز، وأنّ غريزة الحب تُشبع بالعلاقات (البريئة) بين الجنسين، ولقد أصبح في مجتمعاتنا من يقول بأهمية تبادل الحب بين الجنسين مع الحفاظ على الشرف! ويتلجج صدى هذا القول في بعض أوساط البنين والبنات.

والإسلام لا ينكر غريزة الحب ولا يتجاهلها، وإنما يضبط مسار إشباعها، ويوجهها في الاتجاه الصحيح، حتى لا تسود الرذيلة ولا تتطبع الفاحشة، وحتى لا تصرف طاقة الحب في غير موضعها الصحيح فتعود بالأثر السلبي على الفرد والمجتمع.

وليس هذا مجال الإقناع والمقارنة بين الطرح الغربي والطرح الإسلامي لموضوع الغرائز. وإنما أردت توصيفاً لواقع.

زلزلة الكيان الأسري:

لقد تعرضت الأسرة إلى أطروحات إعلامية هادمة لقلعتها. كأنما ريح عاتية تهبُّ على الأسرة ليل نهار، لاقتلاع جذورها. وأصبحت بذلك كالمريض ذي المناعة الضعيفة يؤثر عليها كل شيء.

يتعاطى الإعلام التفسير الغربية للعلاقة الزوجية ليحلَّ بديلاً للمجتمع المسلم عن التفسير الإسلامي، واعتنق فئام من المجتمع - لا سيما من الجيل الجديد - هذا التفسير.

الثقافة الغربية ترى أنَّ الزواج علاقة شراكة في الحياة، وتسمي كلاً من الزوجين: شريك الحياة. ولا ترى توزيع المزايا بين الرجل والمرأة؛ فكل منهما إنسان، وعلى المرأة أن يكون لها إسهام في توفير المسكن بالقدر الذي تحتاجه، كما أنَّ عليها جلب المال وطلب الرزق؛ لأنَّ ذينك الأمرين ليست من مسؤوليات الزوج.

أما الإسلام فإنه يعظّم الزواج فيسمى عقد الزواج ﴿مِيثاقاً غَليظاً﴾ [النساء: ٢١]، ويعظّم شأن المرأة فيجعلها جزءاً من

الرجل؛ فيكون عليه الاهتمام بها كما لو اهتم بشيء من جسده وكيانه، فهو الذي يحميها وهو الذي يكفيها مؤونة الحصول على النفقة والسكن، وهو المكلف بطلب الرزق وبناء المسكن وتوفير متطلبات الحياة. هو في حقيقة الأمر وجوهه خادم لها مع كامل توقيرها له واحترامها وإجلالها. وتقوم هي بمسؤوليات البيت من تربية الأولاد وتوفير الهدوء ونشر الحب؛ فتجعل من هذا البيت الذي أسكنها إياه جنة صغيرة يرتع الزوج في رياضها، وحضناً دافئاً يؤوب إليه في ملمات الحياة، ومحضناً تربوياً يستلهم فيه الأبناء القيم والتعاليم مع العطف والحنان.

أصبحت عدد من النساء تطالب الأزواج بما لا يحق لهن مطالبتهن به، من أمور جليلة أو حقيرة، نتيجة لتسرب التفسير الغربي للعلاقة الزوجية. كما أن هناك حالات طلاق ليست بالقليلة في مقتبل الحياة الزوجية، منشؤها عدم رغبة المرأة في البقاء زوجة لهذا الرجل! وهذا يؤشر إلى تدني مستوى المسؤولية الزوجية لدى هذه الشريحة من الفتيات.

هذا على مستوى العلاقة الزوجية.

أما على مستوى سلطة الوالدين.. فلم تخطئها معاول الهدم كذلك.

لقد انحسرت سلطة الوالدين إلى درجة كبيرة عن ذي قبل. فالحرية الشخصية وحرية التعبير وحرية العلاقات... الخ مفاهيم شكّلت جيلاً جديداً.

في وقت ماضٍ كانت المناقشة العقلانية التي يديرها الابن مع والده تعدُّ ضرباً من العقوق، وهذا خطأ من الوالد حينها. واليوم أصبحت حقاً طبيعياً، كما أنّ للأولاد حرية الاختيار في كل شيء؛ في المأكل والملبس والعلاقات.

وتدعو عدد من الأطروحات الإعلامية إلى نزع القوامة ونزع الولاية، ولهذه الأطروحات سمّاعون أغبياء أو مُغرِضون، وتعمّم الحديث عن (العنف الأسري) ليعالجه بمنع التأديب بالعقاب مطلقاً، وأصبحت ترى أشبه ما يكون تحريضاً إعلامياً وثقافياً للأولاد على والديهم. الشواهد كثيرة وفي ذات الوقت تثير الدهشة.

تالله! لقد اهتزت القيمة العظمى والشريعة المقدسة المتمثلة في (بر الوالدين) بفضل الإعلام المفتوح وتفاعل الجهات المشرعة معه. ووصل الحال بهذا الجيل أن يعمم على طلاب وطالبات المدارس خطأً ساخناً للإبلاغ عن عقاب الوالدين لهم.

سأحاول الحفاظ على مسار البحث، وعدم الاستطرد، وبالتالي لن أناقش مسألة (العنف الأسري)، وإنما أشير إلى تأثير

هذه المصطلحات والمفاهيم وترويجها في المجتمع، في تشكيل شخصية جديدة، غير التي كنا نعهد لها من قبل.

في دراسة ميدانية محكمة بديعة أعدتها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتعاون مع جامعة نايف للعلوم الأمنية في الفترة ١٤٢٩ - ١٤٣٠هـ، بعنوان (هروب الفتيات، أسبابه، آثاره، علاجه) ذكرت الدراسة أنَّ نسبة (الطالبات) من الهاربات يعادل ٣,٥٢٪ من مجموع الهاربات، وأنَّ نسبة اللاتي قضين وقت فراغهن قبل الهروب من المنزل في التفاعل مع الإعلام تعادل ٩,٥٦٪^(١)، وهي النسبة العظمى في الدراسة.

لم يعد هروب الفتيات مجرد حالات نادرة، بل أصبح ظاهرة تؤرِّق مسؤولي الأمن وأرباب الأسر. وبالتالي ظهر ضعف الأسرة في القدرة على سدِّ الفجوة الاجتماعية التي أنشأها الإعلام وقنوات التواصل، وأصبح من المُلحَّ جدًّا تدريب الآباء والأمهات تدريبًا عمليًّا حقيقيًّا على مهارات التواصل مع الأبناء وآليات الحوار، واستيعاب أطروحات الأولاد وأنماط معاشتهم الجديدة، كما أصبح من المُلحَّ كذلك تدريب الأولاد على تقنيات التعامل مع والديهم والمهارات التي تُحوِّلهم إلى إيجابيين في نظر آبائهم.

(١) انظر: هروب الفتيات، ص ٢٥٧ وما بعدها.

إما أن نتعامل مع هذا الواقع بجدية وموضوعية، وإلا فإنّ مزيداً من الانفلات والتفكك ينتظرنا.

ماذا أحدثت قنوات التواصل الاجتماعي؟

تضمّن تقرير وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي الصادر عن قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب ٢٠١٥م إحصاءات مهمة للغاية. ومن ضمن النتائج الرئيسة في التقرير: انطباعات حول وسائل التواصل الاجتماعي، مبيّنة في الجدول الآتي^(١):

م	البند	نسبة المؤيدين
١	لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً في تسهيل اتصال الناس ببعضهم	٪٨١
٢	غيّرت وسائل التواصل الاجتماعي العالم الذي نعرفه	٪٧٩
٣	تساهم وسائل التواصل الاجتماعي في تقريب الناس من بعضهم البعض	٪٧٠
٤	أنا حريص على متابعة آخر الأخبار على التواصل الاجتماعي	٪٦٧

(١) تقرير وسائل التواصل الاجتماعي ٢٠١٥، ص ٢.

٥	تشجع وسائل التواصل الاجتماعي الناس على الإبداع والابتكار في طرح ومناقشة أفكارهم	٦٦٪
٦	وسائل التواصل الاجتماعي لديها تأثير كبير على نجاح الشركات	٦٦٪
٧	أحدثت وسائل التواصل الاجتماعي تغييراً كلياً في حياتي	٦٣٪
٨	من السهل العثور على وظيفة مناسبة عند استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بدلاً من استخدام الوسائل التقليدية	٦٢٪
٩	وسائل التواصل الاجتماعي لديها تأثير إيجابي على المجتمع	٦١٪
١٠	أعتقد أن العديد من وسائل التواصل الاجتماعي ذات صلة بي	٥٨٪
١١	جعلتني وسائل التواصل الاجتماعي شخصاً أكثر سعادة	٥٧٪
١٢	أن يكون لديك ملف شخصي على وسيلة أو أكثر من وسائل التواصل الاجتماعي أمر ضروري هذه الأيام	٥٧٪
١٣	تشكل وسائل التواصل الاجتماعي قناة تواصل فعالة بين الحكومة والناس	٥٢٪
١٤	أنا أثق في وسائل التواصل الاجتماعي	٤٤٪
١٥	تساعد وسائل التواصل الاجتماعي على الحفاظ على عاداتنا وتقاليدينا	٤١٪

من خلال الجدول السابق يتضح لك أنّ وسائل التواصل الاجتماعي عزفت على وتر الاحتياجات النفسية بشكل هائل، وبالتالي فإن الغالبية العظمى من الشباب من الجنسين متواجدون في هذه الوسائل، يقضون فيها جزءاً من أعمارهم. فماذا أحدثت فيهم يا ترى؟

١ - وسائل التواصل الاجتماعي تُعدُّ فرصة لإثبات الذات، لاسيما الذين يعانون من تنقُّص ذويهم لهم. فيجد الشاب - أو الفتاة - عدد المتابعين له، واهتمامهم به من الجنسين، ويقارن - بوعي أو بغير وعي - بين نظرة الأسرة له ونظرة المتابعين، فينجذب إلى هذا المجتمع الجديد الذي يهتم به، ويؤليه عنايته، ويستمع إليه ويحاوره، ولربما كان مؤثراً فيهم. يقول أحد الآباء: تفاجأت أن ولدي في المرحلة المتوسطة، يتابعه على الانستغرام أكثر من ٤٠٠٠ متابع! أتحدث عن المغمورين لا المشهورين.

لا شك أنّ هذه الشريحة ستنتظر بازدياد إلى من يهون من شأنها من داخل أسرتها ومحيطها، لاسيما البنات منهم.

٢ - سهولة العلاقات غير المشروعة؛ حيث يتساوى الذكور والإناث في عمل الحسابات، ويعتبر الجميع (مشاركين) ولهم (معرفّات) بغض النظر عن من يكونوا.

٣ - ارتفاع الوضع التافه ذي الأطروحات التافهة، وانخفاض الشريف العالم، في هذه المواقع. أحد التافهين وجدت له في الموقع الشهير (يوتيوب) مليوناً ونصف مليون متابع! ولا يُعدُّو طرحه السماجة والسخف. بينما بعض المفكرين الذين بذلوا عشرات السنين من أعمارهم في العلم والدعوة والتأليف لا يتجاوز عدد المتابعين لهم في (تويتر) خمسة آلاف.

ناهيك عن لقطات الواقع (سناب شات) وما يُعرض في كثير منها، من اللاشيء في أقل أحوالها، ثم يتصدر أصحابها هذا الموقع، ليتابعهم مئات الآلاف بل الملايين من البنين والبنات. إنها تحكي قصة الكوفة الأنفة الذكر، لكن بشكل آخر، ولها تبعاتها.

٤ - العزوف عن الفعاليات الاجتماعية الحقيقية؛ لأن العالم الافتراضي وفّر بيئة اجتماعية بديلة، قادرة على إشباع الحاجات النفسية. وفي الجانب الإيجابي بعض الأختيار لم يجد متسعاً له في العمل الدعوي على أرض الميدان فلجأ إلى هذه المواقع، فوجد من يستمع إليه ومن يتأثر بأطروحاته، واتخذها بديلة عن العمل الميداني.

٥ - إعادة تشكيل منظومة القيم في الفرد. وهذا من أخطر الآثار السلبية لمواقع التواصل الاجتماعي، فإنَّ في كل فرد منظومة

متكاملة من القيم والمبادئ، ولها سُلمٌ في الأولويات، ولها نظام خاصٌ بترجيح القيم عند الحاجة وتقييمها. إنَّ الجيل اليوم يتعرض إلى تشكيل جديد، تنخفض فيه قيم عليا، كبرِّ الوالدين والرجولة بالنسبة للذكور، وترتفع فيه قيم سفلى كالاستهتار والخديعة والشهرة. ناهيك عن العلاقات غير المشروعة.

٦ - الإهمال المعرفي والعلمي. ليس هذا على مستوى التحصيل الدراسي فقط، بل يشمل الثقافة الشرعية التي ينبغي تحصيلها واكتسابها، فتجد - على سبيل المثال - الشاب المستقيم يتابع كمًّا كبيراً من المعلومات الشرعية عبر حسابات المشايخ والعلماء، لكنك لو سألته عن مسألة شرعية؛ لم يستطع تحرير جواب فيها، فهو ممن تصح فيه العبارة المشهورة: (يعلم كل شيء عن لا شيء!).

اعتيد في التواصل الاجتماعي بتر النصوص العلمية، وكذلك المقاطع الصوتية لأهل العلم. شخصياً لا أعتقد صحة هذا الأمر، رغم اشتهاؤه، فإنَّ للكلام بدايةً ونهايةً، وينبغي أخذ هذا الكلام في سياقه الكامل. على أية حال؛ فإنَّ وسائل التواصل الاجتماعي أحدثت فوضى علمية إلى حدٍّ ما. وعزف الكثيرون عن العكوف على كتب أهل العلم وحضور الحلق، لشعورهم بالاكْتفاء وعدم الحاجة العلمية. وهذا خطير.

٧ - نقطة قوة للشباب. في الوقت الذي يهون فيه المجتمع من قيمة الشباب؛ أصبح الشباب لديهم القدرة على التأثير في مجريات الأمور؛ من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، فبإمكانهم التنسيق لحملات أو فعاليات ما.

إذن.. نستطيع القول: إن وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة كوّنت للشباب من الجنسين مجتمعًا موازيًا للمجتمع الحقيقي المكون من الفرد والأسرة والحي والقرية والمدينة ودوائر العمل العام والخاص. وعليه؛ فإن لدى الشباب جاهزية في الثورة على أيّ مظهر من مظاهر المجتمع الحقيقي!

وبعد.. فهذه إشارات فحسب، توجب القول بأننا أمام جيل جديد، في ثقافته وأنماط تفكيره ومعيشتته، وتصلح أن تكون مقدمة للاطلاع عليها قبل الشروع في عملية تخطيط تربوي.

والله المسؤول أن يكتب على أيدينا الخير لأجيال أمتنا الصاعدة.

المبحث الثاني:

الشواهد التاريخية للإبداع الدعوي والتعليمي

التاريخ صفحات مطوية، نشرها لاستلهاام الدروس والعظات،
وتعيننا على تخطي الحاضر واستشراف المستقبل، وفهم سنن الله
- تعالى - في الأمم والمجتمعات والأفراد، ونستدعي من هذه
الصفحات ما يفيدنا في التعامل مع الواقع، ويفتح لنا آفاق التغيير
المستقيمة.

ارتبطت الأحداث الكبرى عبر التاريخ بتغيير الاستراتيجيات.
والتاريخ شاهد على ذلك، فقريشٌ - على سبيل المثال - قبل حادثة
الفيل غير قريش بعد الحادثة. وسياسة الدعوة النبوية قبل الهجرة
تختلف عنها بعد الهجرة. وما بعد فتح مكة يختلف عن ما قبله. هذا
ناموسٌ كوني، وليس مقتصرًا على الدعوة الإسلامية.

والأمثلة والشواهد على هذا الارتباط عبر التاريخ الإسلامي
كثيرة وجديرة بالدراسة والتأمل.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الأحداث الكبيرة وما يعقبها من
تغيرات تقوم بوظيفةٍ في غاية الأهمية، وهي تحفيز العقل البشري
للتفكير بطريقة جديدة أو غير مألوفة في السابق، أو غير متوقعة.
وإنَّ الذين أخضعوا تفكيرهم لأنماط الماضي لم ينتبهوا لإدبار
الزمان عنهم، ومغادرة الجيل عن ساحتهم، أمَّا الذين أبدعوا
وابتكروا فإنهم استطاعوا أن يقودوا الحاضر إلى المستقبل، وأنَّ

يحتضنوا الجيل الجديد. ومن خلال استعراضنا لبعض الشواهد سيتضح ذلك جلياً.

وما لم يستجب العقل الدعوي والتربوي لهذه المحفّزات؛ فإنّه سيخفق في حمل الرسالة، لما تدل عليه هذه الحال من ضمور في عضلات التفكير، وغش في الرؤية الاستشرافية، وذوبان في الماضي القريب، واستغراق غير موضوعي في الديناميكية الدعوية. وسأحاول في هذا المبحث أن أوقف القارئ الكريم على ثلاثة شواهد تاريخية؛ كان لها التأثير الواضح في تغيير استراتيجيات أهلها للعمل في خدمة الإسلام والذّب عنه، وكيف أنهم لم يجمدوا في باب التقنيات والوسائل، وكيف استطاعوا المحافظة على الثوابت وهم يبدعون.

معانٍ جديدة لحفظ القرآن الكريم

كان النبي ﷺ مهتمًا بمسألة حفظ القرآن الكريم، مما أثر على سلوكه التعليمي، فكان من شدة حرصه على حفظ القرآن إذا جاءه جبريل بالوحي يردّد معه الآيات، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. أي: أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده^(١).

كما حرص الصحابة رضوا الله عنهم على حفظ القرآن أو ما تيسر منه، وتسبق إلى ذلك جمٌّ غفير منهم. وقد قُتل ممن حرصوا على حفظه سبعون رجلاً في بئر معونة، لكن الوقت حينها يسمح بإعادة إنتاج القراء مرة أخرى، إذ لا يزال النبي ﷺ حيًّا بين أصحابه، ولما يكتمل نزول القرآن الكريم.

وبرز من هذا الجمِّ الغفير سبعة ذكرهم البخاري في صحيحه وهم: عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء رضوا الله عنهم حيث جمعوا القرآن كله في صدورهم وعرضوه على النبي ﷺ.

إلى جانب العناية بحفظ كتاب الله في الصدور، اتجهت عناية النبي ﷺ بكتابه فاتخذ كتابًا للقرآن من أجلاء الصحابة رضوا الله عنهم كعلي بن

(١) تفسير ابن كثير ٥/٣١٩.

أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت. تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشدهم إلى موضعها من سورتها.

وكان القرآن يكتب في العُصب واللخاف والكرانيف والرقاق والأقتاب وقِطَع الأديم والأكتاف، وتحمل الصحابة في ذلك مشقة عظيمة، تدل على شعورهم بالمسؤولية الكبيرة تجاه حفظ القرآن الكريم.

ثم اختار الله لنبيه محمد ﷺ أن يلحق بالرفيق الأعلى، فمات - بأبي هو وأمي ﷺ - والقرآن على هذه الحال من الحفظ؛ مجموع في صدور الرجال، ومكتوب على قطع متفرقة، ولم يكن ثمة حاجة إلى إجراء جديد في مسألة حفظ القرآن الكريم.

وبقي أصحاب النبي ﷺ على ما هم عليه من العناية بالقرآن الكريم إلى أن حدث أمر غير طريقة التفكير لديهم في هذا الشأن، ودشنوا - بناءً عليه - مرحلة جديدة من العناية بالقرآن الكريم.

إنها معركة الإمامة!

وهي معركة عظيمة فاصلة، حشد فيها المرتدون عدتهم وعتادهم لقتال المسلمين، وبالمقابل احتشد المسلمون فيها بما لم يسبقوا إلى ذلك. كل ذلك لأهمية هذه المعركة. ولو فرض عليّ تشبيه معركة الإمامة بغزوة من غزوات النبي ﷺ لما كانت غير غزوة بدر، مع اعتبار الفوارق المعروفة، وإنما أشير إلى خطورة هذه المعركة.

قال ابن كثير: (فكان جملة مَنْ قُتِلُوا في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: واحد وعشرون ألفاً، وقتل من المسلمين ستمائة، وقيل خمسمائة؛ فالله أعلم. وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس من يذكر بعد)^(١). وممن قتل من المهاجرين والأنصار: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولاه، وزيد بن الخطاب، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، والطفيل بن عمرو الدوسي، والحكم بن سعيد بن العاص، وعباد بن بشر، وثابت بن قيس بن شماس، وأبو دجانة، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عتبان.

كان للقراء من الصحابة كتيبة مستقلة في هذه المعركة، تميزت بالبسالة والشجاعة، قُتل منها عددٌ كبير، مما حفز التفكير الاستراتيجي عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ف شعر بخطر كبير على مستقبل الأمة الإسلامية إثر فقد القراء في ساحات الجهاد، وخشي ضياع القرآن، لا سيما بعد مقتل أحد الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن عنهم؛ وهو سالم مولى أبي حذيفة - رضي الله عنهما - في الإمامة^(٢).

فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الخليفة أبي بكر رضي الله عنه بعد معركة الإمامة بأن يجمع القرآن المكتوب في أدوات متفرقة ومتنوعة، فيكون في صُحفٍ مجموعة في مكان واحد عند الخليفة.

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣١٨.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٢٧.

لم أذكر القرآن المحفوظ في صدور الرجال؛ لأن كثيراً من القراء قد قضاوا شهداء.

إنها حقبة جديدة تقتضي عملاً جديداً.. أو هكذا كان يفكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد كان الهدف الاستراتيجي واضحاً من هذا العمل وفكرته، وهو الحفاظ على كامل القرآن الكريم الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مكتوباً في ظل غياب للحفاظ يتزايد.

وفرغ الصحابي الشاب المكلف بكتابة القرآن الكريم زيد بن ثابت رضي الله عنه من كتابته في مصحف واحد؛ هو عبارة عن صحف مجموعة، وامتاز هذا الإنجاز بما يلي:

١- أن العمل على جمع القرآن راعى أدقَّ وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.

٢- اقتصر في هذا المصحف على ما لم تُنسخ تلاوته.

٣- أجمع الصحابة عليه وارتضوه.

٤- كان شاملاً للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة^(١).

(١) مناهل العرفان ١/ ٢٥٣، بتصرف.

تأمل - يارعاك الله - ثمرة هذه الأفكار البناءة التي واجهوا بها ظروف وقتهم.

وماذا لو لم يستجب أبو بكر الصديق لهذه الفكرة العُمرية؟
ماذا لو جمّد أبو بكر الصديق على ما كان عليه من تقنيات
ووسائل في زمن النبوة؟

ماذا سيكون مصير الأمة مع القرآن؟

إنه العقل الاستراتيجي الذي ينظر دائماً إلى المستقبل، وفي
ذات الوقت ينظر إلى ما يحدث حوله على أنه معطيات جديدة
لعمل جديد.

ثم تغيرت الأحوال في زمن الخليفة الفاروق رضي الله عنه؛ حيث امتاز
العهد العُمري بالفتوح الإسلامية الضخمة، والتي جعلت من
الدولة الإسلامية الفتية رقماً عالمياً، في غاية الصعوبة.

ففي الجبهة الشرقية، وفي عام ١٥هـ كانت معركة القادسية،
والتي مزق الله - تعالى - بها جحافل الفرس، وسقطت على إثرها
المدائن عاصمة فارس، ودخل المسلمون القصر الأبيض. وعلى
إثر ذلك بُنيت الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وسبقها بناء
البصرة على يد عتبة بن غزوان رضي الله عنه عام ١٤هـ، تعزيراً للاستقرار،
ولتكونا قاعدتين لانطلاق الجيوش الإسلامية المشرقية.

ليست المدائن إلا حلقة في سلسلة من المدن الفارسية التي سقطت تباعاً بيد المسلمين، وأصبحت إسلامية: الأهواز، وتستر، ورامهرمز، ونهاوند، وأصبهان وسجستان، وخراسان.

أما الجبهة الشامية، ففي عام ١٤هـ فتح المسلمون دمشق، ثم أتبعوها مدن الشام: حمص وحماة واللاذقية وقنسرين وحلب وأنطاكية. وتوجت فتوح الشام بفتح بيت المقدس، فأصبحت الشام بلاداً إسلامية.

تغيرٌ ما حدث في هذه الحقبة الجهادية!

مدن وعواصم عالمية هي الآن تحت إدارة المسلمين وحكمهم. هذه المدن تضم عدداً كبيراً من حديثي العهد بالإسلام، وتضم أيضاً عدداً كبيراً من المسلمين الذين لم تسنح الظروف حينها لتربيتهم وتعليمهم الدين وأحكامه بالمستوى المأمول. والحركة الجهادية مظنة للكثير من النوازل والمستجدات؛ الأمر الذي يستدعي تأهيل أوعية كثيرة للعلم. كما أن الانفتاح على الحضارات والثقافات وسيلة فعّالة لتناقل الأفكار والمعتقدات والمشكلات الفلسفية، وهذا أيضاً يستدعي جهداً علمياً وتربوياً في عواصم الأقاليم ومدنها.

كانت الإشارات والرسائل تتوالى على الخليفة الفاروق، تقول

له بلسان الحال: إنَّ على كبار الصحابة وأجلاءهم من أهل العلم والفقهِ أن يغادر جزءً منهم مدينةَ الرسول ﷺ وأن يعيشوا بين ظهراني المسلمين شرقاً وشمالاً وغرباً!

الوالي على بلاد الشام يزيد بن أبي سفيان ﷺ أدرك ذلك جيداً، فبعث بهذه الرسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يقول فيها: (إن أهل الشام قد كثروا، وملؤوا المدائن واحتاجوا إلى مَنْ يعلمهم القرآن ويفقههم. فأعني برجالٍ يُعلمونهم)^(١)؛ فبعث عمر بن الخطاب ﷺ ثلاثة من الصحابة: أبا الدرداء ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت للقيام بهذه المهمة.

وبعث الخليفة الصحابي الكبير والعالم الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ إلى الكوفة، للقيام بمهمة التعليم هناك. وقال الخليفة لأهل الكوفة في كتابه: (يا أهل الكوفة! أنتم رأس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيء من هاهنا وهاهنا؛ قد بعثت إليكم بعبد الله، وخزنتُ لكم، وآثرتكم به على نفسي)^(٢).

قال الخطيب البغدادي: (وبعثه إلى أهل الكوفة ليقرئهم القرآن ويعلمهم الشرائع والأحكام، فبثَّ عبد الله فيهم علماً كثيراً، وفقهً

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٤.

(٢) الطبقات ٨/ ١٣٠ - ١٣١.

منهم جمًّا غفيرًا^(١).

وبعث أبا موسى عليه السلام إلى البصرة للقيام بمهمة التعليم إضافة إلى الإمارة. فكان مما قاله أبو موسى عليه السلام في خطبته حال وصوله إلى البصرة: (إن أمير المؤمنين بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وآله وأنظف لكم طرقكم)^(٢).

واشغل الخليفة نفسه بطلب العلم في المدينة في فترة خلافته، قال ابنه عبد الله: (تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما تعلمها نحر جزورًا)^(٣). وكان له حلقة يتدارس فيها القرآن وتفسيره مع ابن عباس وابن زيد وغيرهما^(٤). ورتب لمعلمي القرآن رواتب مالية، لانشغالهم بهذه المهمة العظيمة^(٥).

إنها حقبة الحركة العلمية وبناء الفقهاء والقراء في الأمصار. وما كان لهذه الحركة أن تولد لولا الظروف التي صنعتها فتوح الأمصار والأقاليم.

وهذا الاهتمام التعليمي الفائق في سياسة عمر بن الخطاب عليه السلام يعدُّ في صميم المواكبة العصرية، واستشرافاً لمستقبل الأمة،

(١) تاريخ بغداد ١/ ٤٨٢.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٥٧.

(٣) تاريخ الإسلام ٢/ ١٤٦.

(٤) تفسير الطبري ٢/ ٣١٩.

(٥) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٣٤٦ رقم (٢٠٨٢٨).

وتعاملاً جاداً مع معطيات الواقع. لم تُخضعه عاطفة الماضي ولا حنين الذكريات، لأنه ﷺ تربي على الإيجابية والإبداع؛ وأن الثبات مفهوم يتعلق بالمبادئ والأصول لا بالتقنيات والوسائل والمشاريع. وماذا - بالله عليك - لو لم يصرف هذا العبقرى المُلهَم كل هذا الاعتناء بمسألة التعليم القرآني؟ ماذا سيقول ابن قدامة المقدسي في المغني؟ وعمّن سينقل الأحكام الفقهية؟ وماذا سيروي أبو جعفر الطبري في تفسيره عن مفسري الصحابة والتابعين؟ كم ستفقد الأمة من العلم والفقه؟

والدرس الكبير في هذا السياق أن ظروف الوقت والاحتياجات المسوّغة شرعاً هي جزء مهم وضروري من معايير تصميم المشاريع الدعوية والتربوية. ولا أدلّ على ذلك من رضوخ أصحاب النبي ﷺ لمتغيرات عصرهم وظروفها واحتياجاتها، فإن الاحتياجات مفاتيح المشاريع الدعوية والتربوية.

وهذا الدرس من أهم الدروس التي على رواد الدعوة والتربية أن يلتفتوا إليه، لا سيما في هذا العصر.

تقنيات جديدة فيه تقرير العقيدة

رغم ظهور البدع في وقت مبكر إلا أنَّ تأثيرها الأُفقي كان محدودًا، وذلك يعود إلى سببين:

الأول: شذوذها ونكارتها الظاهران للعموم، وذلك نتيجة للقرب من عهد النبوة، وتصدِّي أئمة السلف لبيان ضلالها.

قال عمر بن يحيى سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: (كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ؟ قلنا: لا. فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن! إنني رأيت في المسجد أنفًا أمرًا أنكرته، ولم أرَ والحمد لله إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه. قال: رأيتُ في المسجد قومًا حلَّقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصي فيقول: كَبِّروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هلَّلوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سَبِّحوا مائة، فيسبحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم!

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصّي نعد به التكبير والتهليل والتسييح. قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة؟

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مرید للخير لن يصيبه! إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. وأيم الله، ما أدري لعل أكثرهم منكم. ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج^(١).

والثاني: تصدّي الخلفاء بأنفسهم لمقاومة البدع وإنكارها، مما يؤكد على سنية الدولة حينها. فهذا الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يناظر الخوارج ثم يقاتلهم بنفسه، كما حدث في معركة النهروان سنة ٣٧هـ. كما عاقب الغلاة من الشيعة بالحرق والنفي.

(١) أخرجه الدارمي ١٢/١ المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي حديث رقم ٢٠٨.

عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري قال: (جاء عبد الله بن شداد، فدخل على عائشة، ونحن عندها جلوس، مرجعه من العراق ليالي قتل علي، فقالت له: يا عبد الله بن شداد، هل أنت صادقٌ عما أسألك عنه؟ تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليٌّ؟ قال: وما لي لا أصدقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم.

قال: فإنَّ عليًّا لما كاتب معاوية، وحكَّم الحكمين، خرج عليه ثمانية آلافٍ من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها: حروراء، من جانب الكوفة، وإنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله تعالى، واسم سماك الله - تعالى - به، ثم انطلقت فحكمت في دين الله، فلا حكم إلا لله تعالى. فلما أن بلغ عليًّا ما عتبوا عليه، وفارقوه عليه، فأمر مؤذناً فأذن: أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن. فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحفٍ إمام عظيم، فوضعه بين يديه، فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف، حدث الناس. فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين! ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله عز وجل، يقول الله - تعالى - في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٥] فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمةً من امرأة ورجل.

ونقموا عليَّ أن كاتبُ معاوية «كتبَ عليُّ بن أبي طالب»، وقد جاءنا سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية، حين صالح قومه قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: لا تكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال: «كيف نكتب؟». فقال: اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «فاكتب: محمد رسول الله». فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك. فكتب: «هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً». يقول الله - تعالى - في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. فبعث إليهم عليُّ عبد الله بن عباس، فخرجت معه، حتى إذا توسطنا عسكريهم، قام ابن الكواء يخطب الناس، فقال: يا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ! إن هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه فأنا أُعَرِّفُه من كتاب الله ما يَعْرِفُه به، هذا ممن نزل فيه وفي قومه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فردُّوه إلى صاحبه، ولا تُواضعوه كتاب الله.

فقام خطباؤهم فقالوا: والله لنواضعنَّ كتاب الله، فإن جاء بحق نعرفه لتبعنَّه، وإن جاء بباطل لنُبكِّتنه بباطله. فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم على عليِّ الكوفة، فبعث عليُّ إلى بقيتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم،

حتى تجتمع أمة محمد ﷺ، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

فقال له عائشة: يا ابن شداد، فقد قتلهم؟ فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم، واستحلوا أهل الذمة. فقالت: آله؟ قال: آله الذي لا إله إلا هو لقد كان^(١).

واستدعى الخليفة عمر بن عبد العزيز غيلانَ القائل بالقدر والإرجاء فناظره، فرجع عن قوله، ثم عاد إليه بعد موت عمر بن عبد العزيز، فقتله هشام بن عبد الملك.

وقام خالد بن عبد الله القسري بقتل الجعد بن درهم القائل بخلق القرآن، والمتكلم في صفات الله - عز وجل - بالتعطيل.

وقام سلم بن أحوز بقتل الجهم بن صفوان، القائل بالجبر، والذي زعم أن الإيمان هو المعرفة فقط، والقائل بفناء الجنة والنار، وأن علم الله حادث^(٢).

وسار الخلفاء والولاء على هذا المنوال؛ في عقد مجالس المناظرة مع المبتدعة، وكُتبت من لا يعود عن رأيه إلى السنة.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ترتيب الشامي ٦/ ٣٣٥ ح ٩٥٣٠.

(٢) انظر: كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، مدخل تاريخ ظهور البدع للمحقق ١/ ٦٨.

لكنَّ تغيُّراً ما حدث في الأمة الإسلامية، يتعلق بعقيدتها!

إنه التزاوج الذي تمَّ بين البدعة والسلطة!

لقد تحولت البدع من كونها حالات وظواهر إلى كونها مذهباً تعتنقه الدولة الإسلامية، ويتبناه الخليفة بذاته، ويحمل الناس عليه. كان ذلك عام ٢١٢هـ على يد الخليفة المأمون^(١)، حيث استطاعت المعتزلة أن تحمله على مذهبها فاعتنقه، ثم دفعته إلى حمل الأمة عليه، بديلاً عن مذهب أهل السنة والجماعة، بقوة السلطان والسلاح. وهذه مرحلة جديدة ولجت إليها الأمة الإسلامية، وبلا شك أنها ستلقي بظلالها على كافة الأصعدة. قال ابن كثير في أحداث ٢١٨هـ: (في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن، وأن يرسل إليه جماعة منهم إلى الرقة)^(٢).

لقد تحولت البدعة من كونها أمراً مرفوضاً إلى كونها عقيدة يُمتحن عليها أهل العلم والفضل، ويراد منهم - قسراً - أن يتلبسوها. وحصلت الفتنة في أبرز مسألة تبناها المعتزلة، وهي القول بخلق القرآن، وامتحن فيها الأئمة، ومنهم من قُتل، ومنهم من حُبس وعُذب.

(١) البداية والنهاية ١٤/١٨٦.

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢٠٧.

ثم سار على هذه الخطة بعد المأمون: المعتصم ثم الواثق، والله المستعان.

حتى رفع الله هذه الفتنة بخلافة المتوكل - رحمه الله -، وبثبات الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - على مذهب أهل السنة، حيث حمل المتوكل الناس على ما ذهب إليه الإمام أحمد، وعاد إلى سنة الخلفاء الأولين الذين حموا عقيدة السلف.

قال ابن كثير في أحداث ٢٣٧هـ: (ثم كتب [يعني: المتوكل] إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، وأظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه، فاجتمع به فأكرمه، وأمر له بجائزة سنوية فلم يقبلها، وخلع عليه خلعة سنوية من ملابسه، فاستحيا منه أحمد كثيراً، فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلاً فيه، ثم نزعها نزعاً عنيفاً وهو يبكي، - رحمه الله تعالى -.

وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص يظن أنه يأكل منه، وكان الإمام أحمد لا يأكل لهم طعاماً..

وارتفع شأن السنة جداً في أيام المتوكل - عفا الله عنه - وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد بن حنبل، وكانت ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة موضع ابن أبي دواد عن مشورته أيضاً،

وقد كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة السنة وعلماء الناس، ومن المعظمين للكتاب والسنة والفقه والحديث واتباع الأثر^(١).

هذا موجز لقصة التزاوج بين البدعة والسلطة، حتى فرّج الله عن الناس.

وعلى أية حال فإنّ هذا التغيّر العقدي وما واكبه من تحوّل رسمي نحو الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى وقبولها، لاسيما في الفترة التي تولى فيها المأمون الخلافة، أوجد لوناً جديداً من الطرح العلمي؛ حيث برز عدد من المؤلفات العلمية التي تناقش البدع وترد على أصحابها وتنقض شبهاتهم، نصّاً وعقلاً، لأنه من المعلوم أنّ الدولة حين تتبنى مبدأً أو مذهباً بشكل رسمي فإنه سينعكس تأثيره على عموم الناس، خوفاً وطمعاً وتأثراً وتصديقاً، وكما يقال في المثل: الناس على دين ملوكهم، كما أنها ستوجّه العديد من الأنشطة الثقافية في نفس الاتجاه الذي تبنته، كإنشاء دور الحكمة مثلاً^(٢). وانبرى أئمة الحديث للتصدي لهذا الشأن، بعد أن كان هذا اللون من الطرح العلمي مُدرجاً ضمن مصنفاتهم الحديثية في أبواب.

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٥٠.

(٢) للدكتور يحيى الجبوري مؤلف بعنوان: بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية، يرصد ويصف فيها المكتبات ودور العلم والحكمة في العالم الإسلامي آنذاك، ط دار الغرب الإسلامي.

(وقد اتخذت هذه المؤلفات منهجين مختلفين:

الأول: منهج الردّ؛ أي: عرض شبه الخصوم، وبيان الحق في ذلك مدعماً بالأدلة النقلية من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين. وذلك يتمثل في مؤلفات عدة، أهمها:

١- كتاب الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ).

٢- الرد على الزنادقة والجهمية، لأحمد بن حنبل (٢٤١هـ).

٣- الرد على الجهمية، لعبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي (٢٢٩هـ).

٤- الرد على الجهمية، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ).

٥- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ).

٦- الرد على الجهمية، لعثمان بن سعيد الدارمي (٢٨٠هـ).

٧- الرد على بشر المريسي، لعثمان بن سعيد الدارمي، كذلك.

٨- الرد على الجهمية، لعبد الرحمن بن أبي حاتم (٣٢٧هـ).

الثاني: منهج العرض. وهو عرض العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويمثل هذا المنهج المؤلفات الآتية:

- ١- السنة، رسالة لأحمد بن حنبل (٢٤١هـ).
- ٢- السنة، لأبي بكر بن الأثرم (٢٧٢هـ).
- ٣- السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ).
- ٤- السنة، للمروزي محمد بن نصر (٢٩٤هـ).
- ٥- السنة، للخلال: أحمد بن محمد بن هارون (٣١١هـ).
- ٦- التوحيد، لابن خزيمة (٣١١هـ).
- ٧- الشريعة، لأبي بكر الآجري (٣٦٠هـ).
- ٨- الإبانة، لعبيد الله بن محمد بن بطة (٣٨٧هـ).
- ٩- التوحيد، لمحمد بن إسحاق بن منده (٣٩٥هـ).
- ١٠- شرح السنة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زنين (٤١٨هـ).
- ١١- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي (٤١٨هـ).

وهذه الكتب تركّز على قضية مهمة هي: العودة بالأمة إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة واتباع السلف الصالح في فهمهما، واجتناب ما جدَّ من الآراء المحدثَّة والمذاهب المنكرة^(١).

لاحظ أنَّ اهتمام أهل العلم في القرن الثالث انصبَّ على الردود، بينما أضافوا في القرن الرابع العرضَ والتقرير. وفي كلتا الحالتين فإنَّ هذا اللون من الطرح العلمي أتى مواكبًا لظروف العصر وإملاءات الواقع. وإن استجابة أهل العلم لهذه الظروف تأتي مصداقًا لقول النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوُّه؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(٢).

إنها حقبة الصراع بين السنة والبدعة، في فترة التأسيس والتنظير، ودخولهما في مربع السلطة، لكنَّ أئمة السنة وأهل الحديث كانوا على قدرٍ عالٍ من المسؤولية حين عرفوا كيف يُوقِفون هذا التغوُّل البدعي في الأمة، ويقرِّرون مسائل العقيدة من خلال الكتابة والتأليف.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، مدخل تاريخ ظهور البدع للمحقق ٧١/١.

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة ٢٦٩/١.

المدارس النظامية

لا يمكنك أن تدرك فضل الوزير الصالح نظام الملك تمامًا من دون أن تقرأ تاريخ كلٍّ من الدولتين البويهية والعبيدية.

ولا يمكنك أن تعرف قيمة الثلاثين عامًا لوزارة هذا الفذِّ إلا إذا عرفت الحالة البائسة التي كانت عليها الخلافة العباسية آنذاك، والحال التي وصل إليها أهل العلم قبل أن يتربع هذا الوزير على عرش التأثير الفكري والسياسي، بل والعسكري.

لقد بسط البويهيون الإماميون سلطانهم على إيران والعراق، حتى إنَّ بغداد عاصمة الخلافة العباسية خضعت لنفوذهم.. واستمرت دولتهم من ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ.

وقد كانت الدولة البويهية دولةً رافضية عدوةً لأهل الإسلام والسنة، مجتهدةً في نشر الرفض بين المسلمين. وما ذكره ابن كثير في حوادث سنة ٣٥٢هـ يعتبر لقطة سريعة تدل على ما ورائها، يقول: (في عاشر المحرم من هذه السنة أمر معز الدولة بن بويه - قبَّحه الله - أن تُغلق الأسواق وأن يلبس الناس المسوح من الشعر، وأن تخرج النساء حاسراتٍ عن وجوههن، ناشراتٍ شعورهن في الأسواق، يطمئن وجوههن، يُنخن على الحسين بن

علي. ففعل ذلك، ولم يُمكن أهل السنة منع ذلك؛ لكثرة الشيعة، وكون السلطان معهم.

وفي ثامن عشر ذي الحجة منها أمر معز الدولة بإظهار الزينة ببغداد، وأن تُفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تُضرب الدبادب والبوقات، وأن تُشعل النيران بأبواب الأمراء وعند الشرط؛ فرحاً بعيد الغدير - غدير خم - فكان وقتاً عجبياً ويوماً مشهوداً، وبدعة ظاهرة منكرة^(١).

وقد آل أمر الخلافة إلى حالة من الضعف والهبوان لا تسر المؤمنين. يقول ابن كثير في حوادث ٣١٧هـ: (في المحرم من هذه السنة اشتدت الوحشة بين مؤنس الخادم والخليفة [المقتدر بالله]، فالتفَّ الأمراء على مؤنس الخادم وتفاقم الحال، وآل إلى أن اجتمعوا على خلع المقتدر بالله وتولية محمد بن المعتضد، فبايعوه بالخلافة وسلّموا عليه بها، ولقبوه القاهر بالله، وذلك ليلة السبت للنصف من المحرم من هذه السنة، وقلد أبو علي بن مقله وزارته، ونهبت دار المقتدر، وأخذوا منها شيئاً كثيراً، ووجد لأم المقتدر ستمائة ألف دينار قد دفنتها في قبرٍ بئربتها، فحُمِلت إلى بيت المال، وأُخرج المقتدر وأمه وخالته وخواص جواريه من دار الخلافة، وذلك بعد محاصرة دار الخلافة، وهرب من كان بها من الحَجَبَة

(١) البداية والنهاية ١٥/٢٦١.

والخدم منها، وولي نازوك الحجابة مضافاً إلى ما بيده من الشرطة، وأُزِمَ المقتدر بأن كتب على نفسه كتاباً بالخلع من الخلافة، وأشهد على نفسه بذلك جماعة من الأمراء وسلم الكتاب إلى القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، فقال لولده أبي الحسين: احتفظ بهذا الكتاب، فلا يرينه أحدٌ من خلق الله. فلما أعيد المقتدر إلى الخلافة بعد يومين ردهً إليه، فشكره على ذلك جداً وولاه قضاء القضاة.

فلما كان يوم الاثنين جاء الجند فطلبوا أرزاقهم وشغبوا، وسارعوا إلى نازوك فقتلوه - وكان مخموراً - ثم صلبوه، وهرب الوزير ابن مقله والحجبة، ونادوا: يا مقتدر يا منصور. ولم يكن مؤنس يومئذ حاضراً، وجاءت الجنود إلى بابه يطالبونه بالمقتدر، فأغلق بابه، وحاجف دونه خدمه، فلما رأى مؤنس أنه لا بد من تسليم المقتدر إليهم أمره بالخروج، فخاف أن يكون حيلة عليه، ثم تجاسر فخرج، فحمله الرجال على أعناقهم حتى أدخلوه دار الخلافة...^(١).

هكذا كان أعظم أمر في الأمة: الخلافة والإمامة!

تالله لقد كانت الأمة الإسلامية نهباً ومرتعاً للرافضة، بشتى مذاهبهم. وبدأت الأنشطة المؤسسية لنشر المذهب الرافضي وأفكاره وعقائده.

(١) البداية والنهاية ٣٥ / ١٥.

أما انتشار الرفض وعلّفته على السنة في عواصم الإسلام فشيء لا يُوصَف. يقول ابن كثير: (واستقرت يد الفاطميين على دمشق في سنة ستين، وأذن فيها وفي نواحيها بحي على خير العمل، أكثر من مائة سنة، وكتب لعنة الشيخين على أبواب الجوامع بها، وأبواب المساجد، فإننا لله وإننا إليه راجعون. ولم يزل كذلك حتى أزال ذلك دولة الأتراك والأكراد)^(١).

وفي عام ٣٨٣هـ أنشأ الوزير البويهى أبو نصر سابور بن ازدشير دارَ العلم بالكرخ، ونقل إليها كتبًا كثيرة^(٢) فاقت عشرة آلاف مجلد^(٣) من مختلف العلوم والفنون، ومنها كتب الرفض والتنجيم وعلم الكلام، وبقيت هذه الدار سبعين سنة^(٤). وقد فاقت الوصف في تجهيزها وعمارتها وأوقافها وخدماتها.

هذه الدار بالإضافة إلى المكتبة العظيمة التي بداخلها، فهي أيضًا مجمع للعلماء وطلاب العلم والمعرفة بشتى فنونها، للالتقاء والتدريس والتعلم والمناظرات والحوارات الفكرية. وبالتالي فقد كان لها الدور الكبير في نشر الرفض وتطويره فكريًا، لولا أن الله قدّر عليها الزوال المبكر.

(١) البداية والنهاية ٣١٨/١٥.

(٢) البداية والنهاية ٤٤٧/١٥.

(٣) الكامل في التاريخ ١٥٤/٨.

(٤) البداية والنهاية ٦٠٧/١٥.

والكرخ كما وصفها القزويني: (قرية فوق بغداد على ميل منها. أهلها شيعة غالية ويهود)^(١)، لكنها اتصلت ببغداد، وأصبحت جزءاً منها ببناء الخليفة أبي جعفر المنصور السوق فيها^(٢). والمقصود أن بناء دار العلم في الكرخ وهي بهذا الوصف، يدلُّ على أن بناءها ليس فلتة عابرة، بل هو أمرٌ مقصود وله أبعاده، وما هذه الدار إلا مثلاً للمؤسسات العلمية الرافضية التي أسَّسها الشيعة برعاية البويهيين آنذاك.

أما العبيديون الإسماعيليون فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك؛ تخطيطاً وترتيباً وتخريجاً للدعاة، وانتشاراً في الأقاليم الإسلامية. فهذا ابن كلِّس يعقوب البغدادي، الذي كان يهودياً فأسلم! عمل وزيراً للمعز والعزيز العبيديين، وصنَّف كتاباً في فقه الشيعة، ثم سمعه منه خلُقٌ في مجلس عام، وجلس جماعة من العلماء يفتون في جامع مصر بما في ذلك التصنيف الذميمة. وكان يحضر عنده العلماء، وتُقرأ عليه تواليفه^(٣).

وفي عام ٣٩٥هـ فتحت دار الحكمة الرافضية بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، وجلس فيها القراء والمنجمون، وأصحاب

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٤٤.

(٢) انظر تاريخ بغداد ١/ ٣٩٠.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٤٣.

النحو واللغة، والأطباء بعد أن فُرِشَتْ هذه الدار، وزُخِرَتْ وعُلِّقَتْ على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قَوَّامٌ وخدماءٌ وفرَّاشون وغيرهم، وَسُمِّمُوا بخدمتها. وحصل في هذه الدار من خزائن الحاكم بأمر الله العبيدي من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم، والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يُر مثله مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك.

وأباح ذلك كله لسائر الناس، على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب، والنظر فيها.

وأجرى الرواتب والنفقات على العاملين فيها. وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر، والأقلام، والورق والمحابر^(١).

وقامت في المشرق حركة الحشاشين التي تعتبر امتداداً للدولة العبيدية الباطنية في مصر والشمال الإفريقي، بقيادة الحسن بن الصباح، وباتت خنجراً مسموماً في خاصرة الأمة الإسلامية. قال الذهبي: (صاحب الدعوة النزارية وجدُّ أصحاب قلعة الموت. كان من كبار الزنادقة، ومن دهاة العالم، وله أخبار يطول شرحها

(١) انظر: خطط المقرئ ٢/٣٧٩.

لخصتها في تاريخي الكبير^(١)، في حوادث سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وأصله من مرو، وقد أكثر التطواف ما بين مصر إلى بلد كاشغر، يُغوي الخلق ويُضِلُّ الجهالة، إلى أن صار منه ما صار. وكان قوي المشاركة في الفلسفة والهندسة، كثير المكر والحيل، بعيد الغور، لا بارك الله فيه.

قال أبو حامد الغزالي في كتاب سر العالمين: شاهدت قصة الحسن بن الصباح لما ترهَّد تحت حصن الموت، فكان أهل الحصن يتمنون صعوده إليهم ويمتنع، ويقول: أما ترون المنكر كيف فشا وفسد الناس! فتبعه خلقٌ، ثم خرج أمير الحصن يتصيد، فنهض أصحابه، وملكوا الحصن، ثم كثرت قلاعهم^(٢).

وكانت رحلته إلى مصر لأجل الالتقاء بالحاكم العبيدي المستنصر، قال ابن الأثير: (وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة وصل الحسن بن الصباح الإسماعيلي في زي تاجر إلى المستنصر بالله، وخاطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد العجم فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سرًّا، وقال للمستنصر: من إمامي بعد؟ فقال: ابني نزار)^(٣).

(١) تاريخ الإسلام ١٠/٦٧٤.

(٢) ميزان الاعتدال ١/٥٠٠.

(٣) الكامل في التاريخ ٨/٤٩٧.

وحصل من أمر الحشاشين ما هو معروف ومشهور من التمكن والتوسع في الدعوة الإسماعيلية.

وقد عملت هاتان الدولتان -أعني: البويهية والعبيدية - عملها في حرب الإسلام والسنة، وإضعاف الخلافة الإسلامية، واتخذت في ذلك مسارين رئيسين: القوة العسكرية، والقوة الناعمة، وهي إنشاء المؤسسات العلمية وتخريج العلماء والدعاة الذين انتشروا في الأقاليم لنشر الرفض والتشيع، والتأليف والتطوير الفكري للباطنية.

وقد كان لهما كبير الأثر في ما رسمته من أهداف. قال الذهبي في حوادث سنة ٣٦٤هـ: (وفي هذه السنين وبعدها كان الرفض يغلي ويفور بمصر والشام، والمغرب والمشرق، لا سيما بالعبيدية الباطنية، قاتلهم الله)^(١).

ويقول في موضع آخر في تعليقٍ على خلع الخليفة العباسي المطيع لله: (وكان هو وابنه مستضعفين مع بني بويه، ولم يزل أمر الخلفاء في ضعف إلى أن استُخِلَفَ المقتفي لله، فانصلح أمر الخلافة قليلاً. وكان دست الخلافة لبني عبید الراضة بمصر أُمير، وكلمتهم أنفذ، ومملكتهم تناطح مملكة العباسيين في وقتهم، فالحمد لله على انقطاع دعوتهم).

(١) تاريخ الإسلام ١٨٥/٨.

ويقول: (وأما مكة والمدينة فأقيمت الخطبة والدعوة بالبلدين لأبي تميم المعز العبيدي، وقطعت خطبة الطائع لله في هذا العام [٣٦٣هـ] من الحجاز ومصر والشام والمغرب، وكان الرفض ظاهراً قائماً في هذه الأقاليم، وفي العراق. والسنة خاملة مغمورة، لكنها ظاهرة بخراسان وأصبهان)^(١).

صورة قاتمة للأمة الإسلامية إذ يتغلب على أرضها وأهلها الروافض والباطنيون! يعبر عنها الذهبي بقوله: (فلقد جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى)^(٢).

وإنَّ الدهشة لتخيّم على تفكيرك، وتجعلك تتساءل:

أين الخليفة حينها؟

وأيّن أهل العلم والفضل والغيرة؟ لماذا لم يستطيعوا مقاومة

المدّ الباطني والرافضي؟

لا شك عندي أنّ الجمود على تقنيات الماضين وأدواتهم خطأ!

وإنَّ المرحلة الراهنة تحتاج إلى عقل منعتق من أسر الماضي.

(١) تاريخ الإسلام ٨/ ١٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٥٢.

لكنَّ في الأفق بوادر أمل!

في القرن الخامس الهجري ظهرت دولة السلاجقة في المشرق كوريثة للدولتين الغزنوية والبويهية، وهي دولة إسلامية، وقد اعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بسلطنتها.

لكنَّ الجهود الفكرية التي من خلالها انتشر الرفض وتغلغت الباطنية وظهر التشيع فرضت واقعاً جديداً يدعو إلى تفكير واع بهذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة الإسلامية. فإنَّ هيبة الخلافة ضعفت وضاعت، وأصبح الخليفة صورةً لا مضمون لها، وأصبح للروافض مشاهد ومزارات وفعاليات موسمية تقام فيها شعائرهم المخالفة للسنة، ولا تزال دعواتهم ومدارسهم ومؤلفاتهم تنتشر في طول العواصم وعرضها.

المسؤولية السُّنية في دفع هذا الدخيل تزداد، وعلى هذه الدولة الفتية السنية (السلجوقية) أن تضطلع بهذا العبء الكبير وأن تتولى إدارة هذه المهمة الكبرى في تلك المرحلة الحرجة.

وهذا ما حدث.. ففي عام ٤٥٥هـ تزعم ألب أرسلان سلطنة السلجوقية ومعه في الوزارة نظام الملك أبو علي الحسن بن علي الطوسي، ثم تفرَّد نظام الملك بعد ذلك بالوزارة^(١).

(١) تاريخ الإسلام ١٠/١٠.

وسيرة هذا الوزير سيرة عطرة فقد كان منبع الجود والإفضال، ذا معدلة وأمانة، وصلاح وديانة، صاحب صفح، وحلم، ووقار، وأناة، وصمت، عامر المجلس بالعلماء وأعلام الدين، مأهول الفناء بالأخيار والصالحين، عالمًا، جدّد بناء الربط والمدارس، ورغّب في العلم كل الناس، وأجرى، ووقف على الطلبة والمدرسين، وصنّف العلماء باسمه في أساليب الفنون تصانيف تأنقوا فيها فأحسنوا، وأحسن النظر في أمور الرعية، فصفا العيش، وانتفى العيث. اتصل بالملك ألب أرسلان، ووزر له، ثم لما انقضت أيام ألب أرسلان سنة خمس وستين على تلك الصورة الهائلة قام نظام الملك بتقرير المملكة على ولده ملكشاه، فصار الملك لنظامه حقيقة ومعنى، وللملك اسمًا ورسمًا، وجرت على ذلك أمور الممالك والاستعلاء بالسعد عشرين سنة^(١).

الوزير نظام الملك - رحمه الله تعالى - كان ينظر إلى واقعه بحس المسؤولية.. بمشاعر المنقذ.. بروح المبادرة. كان يدرك تمامًا أن العمل العسكري لوحده غير كافٍ في أمة أنهكتها حركات الرفض والباطنية، والعدو البيزنطي يتربص بها الدوائر. فبدأ يرتب الأمور بطريقة رائعة: ما هو من قبيل (هام وعاجل) وما هو من قبيل (هام وغير عاجل) أيّ أنّه نظر إلى واقعه وتأمل معالجته، فوجد أنّ

(١) طبقات الفقهاء الشافعية ١/ ٤٤٦.

أمامه مسارين للخروج بالأمة من هذه الحال الشنيعة التي وصفها الذهبي فقال: (وضع أمر الإسلام بدولة بني بويه، وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن، وقتلوا وسبوا)^(١).

أما المسار الأول (هام وعاجل) فهو مسار الإدارة الحازمة للصراع مع القوى المناوئة من الباطنيين، والروم كذلك.

أما المسار الآخر (هام وغير عاجل) فهو مسار القيادة الفكرية للأمة الإسلامية، وهو مسار استراتيجي بعيد المدى، بطيء الثمرة، عميق الأثر. ومن أبرز وأظهر أفكار هذا المسار ما قام به من إنشاء المدارس التي عرفت باسمه (المدارس النظامية) في العواصم والحوضر والشغور، بغرض إعادة الهوية إلى الأمة والتصدي للعقائد الباطنية، ولبناء جيل يحمل هذا الدين ويدافع عنه ويرفع رايته.

والمدارس النظامية هي منشآت تعليمية يدرس فيها القرآن والسنة والعقيدة والفقهاء على المذهب الشافعي. قال الذهبي: (وهو أول من بنى المدارس في الإسلام، بنى نظامية بغداد، ونظامية نيسابور، ونظامية طوس، ونظامية أصبهان)^(٢). وإن كان ما ذكره

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٢.

(٢) تاريخ الإسلام ١٠/٤٥٣.

الذهبي يعدُّ من المدارس العظيمة المشهورة، والتي جمعت كبار أهل العلم حينها، إلا أنَّ مشروع بناء المدارس عمَّ تطبيقه في كل مكان، في الثغور والعواصم، والحواضر والمدن الصغيرة والقرى. قال ابن شامة: (ومدارسُه في العالم مشهورة، لم يخلُ بلدٌ من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها؛ بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة)^(١). كل ذلك كان سبباً لمواجهة الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية وإعادة لهويتها السنيّة.

في واقع الأمر فإنَّ قول الذهبي وابن خلكان بأنَّ نظام الملك هو أول من بنى المدارس في الإسلام غير دقيق، فقد سبق إلى ذلك في وقت مبكر. ويبدو لي أنَّ ذلك لم يخفَ عليهما وهما من هما في علم التاريخ! وأنَّ مقصودهما أنَّ نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس في الإسلام على الهيئة المبجلة والتهيئة العظيمة والمتابعة الرسمية، بحيث تمثل رافداً مهماً من روافد بناء الدولة.. ربما أكون مصيباً.

على أية حال.. اعتنى نظام الملك بمدارس الإسلام المراغمة لأعداء الأمة الإسلامية. وأوقف عليها الأوقاف، وبمحاولة لتسليط قليل من الضوء على إحدى هذه المدارس، وربما تكون أكبرها، قد نستطيع إدراك هذا الاعتناء من نظام الملك بهذه المدارس..

(١) الروضتين ١/ ٩٨.

سنسلط قليلاً من الضوء على المدرسة النظامية ببغداد.

قام النظام بتأسيسها سنة ٤٥٧هـ، فقد ابتاع بقعة من الأرض في الجانب الشرقي على نهر دجلة، وخطَّ المدرسة، فكانت مضرب الأمثال بحُسنها. وقد أنفق على بنائها مائتي ألف دينار، وبنى حولها أسواقاً تكون وقفاً عليها، وابتاع حولها ضياعاً وحمامات ومخازن ودكاكين.

لقد اتخذت المدرسة في بنائها شكلاً رباعياً تحيط به قاعات لها قباب، وفي الجانب المواجه لمكة المكرمة يوجد المصلى، وبه منبر. وفي الأروقة الملحقة بالمبنى كانت توجد أماكن لنوم المدرسين والدارسين، وألحق بها مطبخاً وحمامات وداراً للوضوء. وقد استتم بناء المدرسة وانتظمت أحوالها سنة ٤٥٩هـ.

وألحق نظام الملك بالمدرسة بناء خاصاً عرف باسم «دار الكتب»، وزودها بكل غريب ونادر من الكتب، فضمت عشرة آلاف مجلد، فأنفق الأموال الطائلة لشرائها، وجعل للمكتبة خازناً للكتب، فاختار من برع في الفقه والأدب والشعر، وكان النُّظام يجلس في خزانة الكتب ويقرأ ويملي الحديث، كما عمل على تشجيع العلماء لتأليف الكتب، ووفّر لهم الأسباب من مرتبات مجزية وغيرها؛ حتى ينقطعوا على التأليف، كما قام بتعيين الكثير

من الوراقين ودفع لهم الأجور المجزية^(١).

هذا وصفٌ مختصر لنظامية بغداد، ولو استقصينا أوصاف المدارس النظامية الكبرى، وتطرقنا إلى سائر المدارس والمكتبات لاستحقت أن يُفرد لها تأليف خاص.

لقد أدرك الوزير نظام الملك - رحمه الله - أن المدارس هي الأسلوب الأمثل لخدمة دين الله - تعالى - في وقته، ولجهد أعداء الأمة الإسلامية، فأنفق الأموال وأسّس الإدارات للقيام بهذا الواجب الجديد، الذي حتمته ظروف العصر. فلم يتوقع على دويرته، ولم يستدع أدوات الماضين وتقنياتهم، بل عاش بنفس زمانه، يواجه الأعداء بذات السلاح الذي يستخدمونه: الفكر والمدارس وتخريج الدعاة.

ولقد كان من نتاج هذا البناء الكبير، أعني المدارس النظامية، أن تصدر العلماء المشهدة الاجتماعيين والفكرية، وأصبحت الحركة العلمية ذات تأثير حقيقي في المجتمع، وظهر للناس علماء مُربُّون، ساهمت هذه المدارس في تمييزهم كأبي إسحاق الشيرازي وأبي المعالي الجويني - رحمهما الله -. أما أبو حامد الغزالي ومؤلفاته

(١) مجلة الجامعة العراقية، (١/٢٨) ص ٣٥٢، الوزير السلجوقي نظام الملك: إصلاحاته الإدارية وإسهاماته الفكرية، م.م. عمر فلاح عبد الجبار، كلية الآداب، قسم التاريخ.

في التزكية - لولا ما شابها - وفي التصدي للفكر الباطني فشيء آخر يشرح الصدر ويسر المؤمن ويغيب العدو.

وكما أنّها - أعني المدارس النظامية - استطاعت أن تصل بتأثيرها إلى العمق التربوي؛ فإنها كذلك استطاعت أن تتمدد أفقياً لتصل إلى الأطراف لتحافظ على الهوية الإسلامية السنية. قال أبو إسحاق الشيرازي: (خرجت إلى خراسان، فما دخلت بلدة إلا كان قاضيها أو خطيبها أو مفتيها من أصحابي)^(١). وهذا يدلُّ على أثر هذه المدارس المباركة.

ليس هذا فحسب!

بل امتدَّ تأثيرها إلى الاستقرار السياسي للخلافة الإسلامية التي كادت أن تُباد زمن البويهيين، فكان للمدارس النظامية الأثر البالغ في توطيد الاستقرار، وتسكين الثائرة الباطنية وإخمادها، مما جعل الخليفة العباسي يبدي انشراحه لهذه المدارس، قال ابن خلكان: (دخل [نظام الملك] على الإمام المقتدي بالله، فأذن له في الجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك برضاء أمير المؤمنين عنك)^(٢).

ونحن أيضاً! نقول: رضي الله عنك يا حسن بما قدّمته للأمة من

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٣.

(٢) وفيات الأعيان ٢/١٢٨.

خدمة جليلة؛ دفعت بها خطر الرفض وخطر الروم قرونًا بعد ذلك، وأظهرت السنة ورفعت أهل العلم وأنزلتهم في منازلهم الصحيحة. ماذا - أيها القارئ الكريم - لو بقي الوزير نظام الملك يفكر بنفس طريقة الوزراء الذين كانوا قبله.. ماذا سيكون حال الأمة؟

تالله لو كان كذلك لما استيقظ الناس إلا على إعلان الإمبراطورية الرفضية العظمى، وسيتحالف الإسماعيليون والإماميون على هدم الإسلام. ولو كان كذلك لأصبح الروافض تترًا قبل التتر الذين عرفناهم. لكنَّ العقلية الواعية واليقظة النظامية وقفت - بفضل الله تعالى - سدًّا دون ذلك.

ألا من معتبر بهذا التاريخ وشواهدة!

أيها المرابي! أيتها المربية!

سقت لكم هذه الشواهد التاريخية التي تقول لكم بلسان الحال: إنَّ الجمود على (متغيرات) الماضي سيقتل (ثوابت) الحاضر والمستقبل، فحافظوا على ما هو ثابت أصيل، وغيرُوا ما هو قابل للتغيير؛ والحاجة إلى تغييره قائمة، وهؤلاء أسلافكم: لقد كان هذا هديهم.

المبحث الثالث: خطوط عريضة

ثمة خطوط عريضة ينبغي أن تؤطر عملنا التربوي اليوم، أحببت التنبيه إليها، ومناقشتها بشيء من الإيجاز:

١ - تربية تتمسك بمنهج السلف الصالح:

رغم كثرة المتغيرات في عصرنا الحاضر، وعلى كافة الأصعدة.. إلا أن الإسلام الصحيح الذي ارتضاه الله للناس صالح لهذا العصر ولكل مكان في هذا العصر. ذلك أن من الأصول التي ينبغي اليقين بها أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وعصرنا الحاضر ليس مستثنى من الأزمان.

قال الله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. قال الإمام الشافعي - رحمه الله - : (فليس تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها)^(١).

إنَّ رغبنا في تحديث الوسائل والأساليب وأوعية المعلومات وتقنيات التربية لا تعني بأي شكل من الأشكال الحاجة إلى تغيير المنهج الأصيل الذي ارتضاه الله - تعالى - للناس وقال عنه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ

(١) الرسالة ص ٢٠.

الإسلام دينًا ﴿ [المائدة: ٣] . وقد استطاع أهل العلم وفقهاء التربية - رغم تعاقب العصور واختلاف أنماط الحياة فيها - أن يتكيفوا مع واقعهم دون المساس بشيء من منهج السلف الصالح.

وتكيفهم مع واقعهم كان بإجراء التغييرات والتعديلات والتحسينات على تلك التقنيات والأدوات، وكذلك على المضامين والمحتويات، وبالتالي حافظوا على الأصل المهم، وهو المنهج، ونحن رأينا كيف حافظ أصحاب النبي ﷺ على المنهج في ذات الوقت الذي قدّموا فيه معاني جديدة لحفظ القرآن الكريم؛ حيث ابتكروا في حفظ القرآن الكريم كتابته في المصاحف كتقنية إضافية إلى حفظه في الصدور.

إننا بحاجة اليوم إلى إعادة النظر في مقرراتنا التربوية وأهدافنا الاستراتيجية؛ لنعيد تشكيلها من جديد وفق منهج أهل السنة والجماعة. فَيُثِبَّت المنهج وتغيير المضامين والمحتويات، وكذا الأدوات والتقنيات.

التسليم للنصوص، وحجية القرآن والسنة وكونهما مصدر هداية، وعدالة الصحابة وفضلهم، وإجماعات السلف، ولزوم جماعة المسلمين، ومسائل الإيمان، وأعمال القلوب، والولاء والبراء.. كل ذلك يعد اليوم من المتطلبات المنهجية التي يجب أن

يكون لدى المترين صورة واضحة عنها، ومن شأن هذه الصورة أن تؤطر سلوكهم العبادي والدعوي والمعرفي.

٢ - تربية تفرس اليقين في مسائل الاعتقاد الكبرى:

وجود الإنسان، وخلق الكون، وتعريف الرب جل وعلا، ومراحل الحياة والرسول والرسالات.. كل مسألة منها تُعدُّ مرتكزاً لعدد من الأسئلة الفِطرية التي أوجد الإسلام لها إجابات شافية كافية، فجعل أهله مطمئنين سعداء، متوازنين في نظرتهم للكون وللحياة.

من هو الإنسان؟ ما طبيعة خلقه؟ ما منزلته في هذا الكون؟ وهل هو كائن مركزي؟ وما هي معايير صوابه وخطئه؟ وكيف يحاسب فيثاب أو يعاقب؟ وما هي حياة الأمم؟ وما هي طبيعة العلاقات بينها؟ وما هي عوامل نهوضها وسقوطها؟

ما هي حياته؟ وإلى أين تتجه؟ وما هو مصيره؟ وما هي محددات مصيره؟

ومن هو الله؟ ما هي صفاته؟ وماذا تعني أسماؤه؟ وأين هو؟ وكيف نتعرف عليه؟ وما هي علاقته بالكون والإنسان؟

وما هو هذا الكون؟ ما هي أفرادها؟ وكيف تتفاعل هذه الأفراد؟ وكيف نشأ؟ وهل سينتهي؟

وحياتنا هذه.. ما هي؟ وما هي الحياة الأخرى؟ وما هي حياة البرزخ؟ وما علاقة بعضها ببعض؟

ومن هم الرسل؟ ما هي صفاتهم ومعاييرهم؟ وكيف أرسلوا؟ وبماذا أرسلوا؟ وهل الرسالات أمر ملزم؟ وما علاقة الرسالة بالحياة؟

وما هو الشيطان؟ ما طبيعته؟ ما علاقته بالإنسان؟

أسئلة عديدة جاء القرآن بالإجابة عليها كلها بطريقة أخاذة وبتنوع في الأساليب، لتشكل لدى المؤمن القناعات الصحيحة واليقين المبهج. خذ على سبيل المثال قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ [الحجر: ١٦ - ٣٥]

ولقد عاش أصحاب محمد ﷺ وهم القوم البسطاء في معاشهم وحضارتهم.. عاشوا في ظل هذا اليقين أروع حياة وأسعدها وأحلاها. كان اليقين يجعلهم والرضى يبهجهم.

واليوم، وفي ظل الانفتاح الإعلامي الواسع، نلاحظ تشويشاً على الإجابات القرآنية لهذه الأسئلة، ونلمس ارتباكاً في الوجدان حيالها عند شرائح من الشباب (بنين وبنات)، نتج ذلك عن اطلاعهم المفتوح على العديد من المقالات الفلسفية والوسائط الوثائقية الداروينية، ومتابعتهم للأطروحات الإلحادية والتشكيكية، كما كان للاحتكاك المباشر مع معتنقي هذه الأفكار والعيش في أوساطهم أثر بالغ. لقد أصيب المنطق الصريح والنص الصحيح بمعول النسبية.

نحن أمام أجيال يطاردها الشك وتحاصرها الحيرة، بينما العلاج بين أيدينا في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبشكل مبسط ومقنع، وما

علينا إلا أن نتشغل أولئك الحيارى من غياهب الشك إلى فضاء اليقين. يجب أن نعرض عليهم مسائل الاعتقاد بذات الطريقة التي عرضها القرآن أول مرة، فأسس التصورات وأوجد القناعات وسدّ الفراغات.

إنّ تكوين قاعدة فكرية راسخة في أصول القضايا العقدية؛ تكون مدخلاً جيداً من مداخل الدراسات العقدية، وسياجاً حصيناً من الأفكار المنحرفة والشبهات، ومنطلقاً متيناً من منطلقات الحوار وتبادل الآراء في القضايا الفكرية والعقدية بات أمراً ضرورياً في التربية الإسلامية اليوم، لاسيما لدى المؤسسة التربوية.

وتعتبر الكتابة في هذا المجال، أعني القواعد الفكرية في أصول القضايا العقدية مجالاً خصباً ومهمّاً للغاية، بغرض إيجاد مراجع فكرية وعلمية ينهل منها المرربون والمربيات في التأسيس العقدي للمستفيدين من محاضنهم التربوية، ولا تزال المكتبة الإسلامية غير وافية بهذا الغرض، ربما لجدته، وربما لشيء من الجمود العلمي الذي ينتابها، وربما لكلا السببين.

٣ - تربية تصدح الانحرافات وتقوّم الاعوجاج:

في ظل الانفتاح الهائل على العالم وثقافته.. فإنّ تسرّب

الانحرافات إلى المجتمع يعدُّ أمرًا سهلاً، سواء كانت هذه الانحرافات تمس جانب الفكر والعقيدة، أم تمس جانب الأخلاق والعلاقات، أم تمس جانب السلوك والمعاملات. كلها لم تكن بمنأى عن تسرب الانحراف إليها.

طبيعة الإنسان المدنية تفرض عليه أن يؤثر ويتأثر بمن حوله من الآخرين.

ولم يصبح من الشاذ أن ترى شابًا يتلبس ببعض الأفكار الاعتزالية، وآخر يتلبس ببعض الأفكار الرفضية، أو الليبرالية أو العلمانية. قد تجد هذا الشاب لا يزال على أصل فطرته المتدينة، لكنه لم يسلم من لوثات هذه المذاهب الباطلة في مسألة أو في عدة مسائل، أو لربما تجد لديه مزيجًا وأخلاطًا من مسائل باطلة مجموعة من عدة مذاهب باطلة؛ رغم كونه مصليًا محافظًا على الأصول.

هذا أحد إفرازات الواقع الجديد، والذي ينبغي أن نتعامل معه بحكمة وموضوعية. فمثل هذا الشاب لا ينبغي إقصاؤه من دائرة الاستهداف التربوي بعلّة انحرافاته الفكرية، بل ينبغي احتواؤه ضمن الدائرة وتسليط الأضواء التربوية عليه. لعلك الآن وأنت تقرأ هذه الكلمات تحاول أن تتخيل هذا النمط من الشباب في محضنك التربوي ذي التخصص الدقيق! لست أقصد ذلك على

وجه التحديد، وإنما أقصد أن يكون تحت أضواء التربية، وعلينا كوننا مؤسسات تربوية أن نصنع لهذا النمط من الشباب والشابات مسارات تربوية تحفظ لهم هويتهم الإسلامية المتدينة، وتصحح انحرافاتهم، قبل أن يجرفهم الطوفان. وماذا لو كان الهدف الاستراتيجي لهذا النمط: المحافظة على الهوية؟ مثلاً، إذن ستكون لهم برامج ومسارات تناسب هذا الهدف.

في الآونة الأخيرة ظهرت عدة شكاوى بوقوع طلاب أو طالبات من محاضن التربية في قضايا أخلاقية غير لائقة، أو تلبسوا بإشكالات فكرية. لقد كان هذا الأمر في وقت سابق يعدُّ مسوغاً كافياً لطردهم من المحضن. أما اليوم فإن وجود هذه الحالات ينبغي أن يحاط بعملية إرشادية احترافية، تتبنّى أساليب علمية في معالجة هذه القضايا دون الحاجة إلى الاستبعاد؛ لأن الاستبعاد والإقصاء يعني تدشيناً رسمياً لانحراف الطالب أو الطالبة، وهذا عكس ما أنشئ المحضن لأجله، كما أنه يعني إخفاقاً في التعامل مع الواقع التربوي الحقيقي لطلابنا وطالباتنا.

وهذا المسلك التربوي ينطلق من عقيدة أهل السنة والجماعة في بقاء الإيمان عند من يقارف الذنوب والمعاصي. وكثير من نصوص السنة تعالج أخطاء وانحرافات واقعة. بل لما وقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ليحجبه عن ماهية دعوة النبي ﷺ قال:

(وأمرنا بالكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات)^(١).

لقد بعث النبي ﷺ وقريش غارقة في وحل الفواحش والموبقات، بل استطاعت أن تشرعن جزءاً منها ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فتربى أصحابه ﷺ على مفارقتها وهجرانها لله تعالى.

عن أبي أمامة ﷺ قال: (إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال ﷺ: «ادنه». فدنا منه قريباً، فجلس. قال ﷺ: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ١ / ٣٧٣.

ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(١).

وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب، وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو يباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده! لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٢).

إننا اليوم بحاجة إلى تأسيس مسار للمحاضن التربوية يكون قادرًا على استيعاب هذا الكم الكبير من الشباب والبنات الذين يحملون في أرواحهم نسمة الخير، لكنهم تلوثوا بمقارفة الشهوات والشبهات، لنعيدهم إلى جادة الطريق ودائرة الخير ومنازل البر، قبل أن يتفاقم عليهم الأمر فلا يهربوا منها إلى ما هو أسوأ منها من الموبقات.

وهذه التوصية تتطلب تفكيرًا مفتوحًا في قوالب العمل التربوي الذي سيخاطبهم بلغة مناسبة لهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند - ترتيب الشامي ١٣٣/٥ كتاب الحدود، باب من استأذن بالزنا، ح ٧٢٧٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند - ترتيب الشامي ٣١٦/١ كتاب العلم، باب سؤال أهل الكتاب والحديث عنهم ح ٧٤٤.

٤ - تربية تلبية حاجات المترين:

لو اضطررتُ إلى تلخيص مفهوم التربية لقلت: هي تلبية الحاجات!

ما الذي يدفع الشاب إلى بناء علاقة غير شرعية مع فتاة لا تحل له؟ إنه البحث عن تلبية حاجته من الحب والدفء العاطفي.. بالطبع ليس هذا مسوِّغاً لفعله.

إنَّ سلوكيات الناس التي نتذمر منها ونكثر الشكوى من آثارها إنما هي في غالبها تعبير عن احتياج نفسي دفعهم لفعل ما فعلوه بغرض سدِّ هذا الاحتياج.

حين يجد هذا الشاب في المنهج التربوي ما يلبي حاجاته؛ فإنَّ نسبة جنوحه الأخلاقي تقل، أو لربما تتلاشى، وكثير من الانحرافات في التصور أو في الأخلاق أو في العبادات لا تنقصها المواعظ والزواجر، وإنما ينقصها استقرار في شخصية الشباب، وهذا الاستقرار لا يأتي إلا بتلبية الحاجات.

لدينا ثلاث دوائر ننطلق منها في تصميم برامجنا التربوية: دائرة الاحتياجات التربوية، ودائرة الاحتياجات الإدارية، ودائرة الاحتياجات الإنسانية.

دائرة الاحتياجات التربوية هي تلك الدائرة التي تحتوي على دراسات واقع مجتمع المحضن التربوي، وتقييم هذا الواقع، والأهداف التربوية المبنية على هذه الدراسات.

ودائرة الاحتياجات الإدارية هي تلك الدائرة التي تحتوي على ما يحتاجه المحضن من كوادر إدارية وموارد مالية، ونظم إدارتها وتنسيقها وترتيبها.

ودائرة الاحتياجات الإنسانية هي تلك الدائرة التي تحتوي على الأنشطة والإجراءات التي تلبي الحاجات لدى الطلاب والعاملين في المحضن التربوي. وهذه الحاجات متعلقة بالمرحلة العمرية للطلاب في المحضن.

وحاجات المترين ليست شيئاً واحداً، بل هي متنوعة، وهرمية أيضاً، ويعتبر هرم ماسلو للاحتياجات الإنسانية من أبرز وأوضح التصنيفات؛ حيث يضع الاحتياجات الفسيولوجية في قاعدة الهرم، كالحاجة إلى النوم والطعام والتنفس والجنس والتوازن والإخراج، باعتبارها حاجات أساسية لا يمكن الاستغناء عنها.

ثم تليها حاجات الأمان كالحاجة إلى السلامة الجسدية والأمن بكافة أشكاله؛ الأسري والصحي والوظيفي.

ثم تليها الحاجات الاجتماعية؛ كالحاجة إلى الصداقة والعلاقات الأسرية وعلاقات الجنسين.

ثم تليها الحاجة إلى التقدير؛ كالحاجة إلى الثقة والقبول.

ثم تليها على رأس الهرم الحاجة إلى تحقيق الذات، كالحاجة إلى المسؤولية والابتكار، ووجودها في هرم له دلالة على بنائها على بعض.

وللدكتور عبد العزيز النغمشي تصنيف رائع للحاجات الإنسانية لدى المراهقين، فهو يصنّفها في ثلاثة مستويات لا تنفصل عن بعضها؛ ففي الأساس تكمن الحاجات النفسية؛ الحاجة إلى العبادة ثم الأمن ثم القبول. وفي البنية تكمن الحاجات الاجتماعية؛ الحاجة إلى الرفقة ثم الزواج ثم العمل والمسؤولية. وفي القمة تكمن الحاجات الثقافية؛ الحاجة إلى الاستطلاع ثم الهوية الثقافية^(١).

إنّ دائرة الاحتياجات الإنسانية الأنفة الذكر ينبغي أن تشبع جملة هذه الاحتياجات لدى المستفيدين، ليحقّق المحضن التربوي أهدافه التربوية بفاعلية.

(١) المراهقون ص ٣٧ - ٣٨.

يتوجب على المربين والمربيات اليوم أن يرموا بسهم في تعلم بعض العلوم الاجتماعية كعلم نفس النمو؛ ليتمكنوا من صناعة برامج تربوية تناسب هذا الجيل، وليحوّلوا هذه المحاضن إلى بيئات جاذبة، ومفيدة، وبانية.

حين يعتني المحضن التربوي بتلبية الاحتياجات التربوية على حساب تلبية الاحتياجات الإنسانية، فإنّه سيؤثر سلبيًا في بناء الشخصية الإسلامية؛ والتي هي هدف التربية الإسلامية؛ لأنّ الشخصية الإسلامية تتكون من جسد وروح وعقل، ولكل منها تغذية تختلف عن تغذية الأخرى.

وإننا حين ننشد الاهتمام بحاجات المتربين، وإعطائها مزيدًا من العناية، فإننا لا نريد بذلك الاحتيال على المستفيدين لمجرد جذبهم وإيقاعهم في حبال تربيتنا، وإنما نريد بذلك تكميل جوانب الشخصية في من نربهم؛ حيث لا تكفي التربية الإيمانية لوحدها في بناء الشخصية الإسلامية، ما لم يصحبها بناء نفسي متكامل، يصنع الاستقرار والتوازن.

قال مالك بن الحويرث: (أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا - أو قد اشتقنا - سألنا عمّن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا

فيهم وعلموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها - وصلُّوا كما رأيتُموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤدِّنْ لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم»^(١).

مالك بن الحويرث رضي الله عنه يرى أن سبب أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالرجوع وترك التعلم على يديه في المدينة طول المدة المسببة للاشتياق إلى الأهل، كما أنه يرى ذلك من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وترفقه بالمتعلمين. وهذا هو عين الفقه التربوي، أعني ملاحظة حاجات المتربين وتأثيرها على تقبل التوجيه التربوي.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -، قال: (مرضت مرضاً، فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي عليّ، فتوضأ النبي صلى الله عليه وسلم ثم صبَّ وضوءه عليّ، فأفقت. فإذا النبي صلى الله عليه وسلم)^(٢). لقد كان جابر حينها من الشباب، وفارق السنَّ بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم كبير، لكنها المسؤولية التربوية التي يعيها المرابي الحاذق.

إنَّ تلمُّس هذا الأمر في ثنايا السيرة النبوية سيصل بنا إلى اليقين في أهمية ملاحظة حاجات المتربين.

(١) أخرجه البخاري ١/٢١٢ كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة.. ح ٦٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٤/٢٥ كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه، ح ٥٦٥١.

ه - تربية تهدف إلى بناء متكامل للشخصية:

بناء الشخصية وتكميلها واجب التربية، هذا قانون التربية. وإنَّ شرائع الإسلام لا تستقر في نفوس مضطربة، ألا ترى أنَّ الخوارج إنما أوتوا من قِبَل أفهامهم، لا من قِبَل عباداتهم.

وإنَّ النفوس المستقرة والتي أُشبعَتْ فيها الحاجات بحدِّ ما تكون أكثر قابلية لتحمل أعباء التدين وأكثر قبولاً لأعمال القلب الإيمانية.

إنَّ منهج التربية الإسلامية منهج متكامل، يكيل بالحق وبالعدل، فلا يطغى جانب في التربية الإسلامية على جانب إلا عاد على الفرد والمجتمع بأثر سلبي، ولكل جانب من جوانب التربية الإسلامية مسارها ومفرداتها ومضامينها ونصيبتها من البرامج التربوية.

ولا يصح هنا إغفال جانب لحساب آخر، ولو كان ذلك بحجة الاحتياج التربوي؛ لأنَّ الإنسان كلُّه لا يتجزأ، وبنائه كبناء البيت؛ فإنَّ البيت - كبيراً كان أو صغيراً - يتكون من عدد من الغرف والمنافع، ولا نعرف بيوتاً ينقصها موقع للمطبخ - مثلاً - أو بيوتاً ينقصها موقع للحمام، فكل جزء في البيت له أهميته، وإنَّ تغيرت وظيفته.

البناء المتكامل للشخصية ترجمة لناموس كوني، مستوحى من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا

أُمَّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
[الأنعام: ٣٨]. ومن قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ المرفوع:
«المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا. ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل. فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»^(١). والقوة هنا كما يشرحها النووي - رحمه الله -: (عزيمة النفس، والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشدَّ عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاقِّ في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك)^(٢).

العزيمة وقوة النفس والتحمُّل أمور نفسية اعتنى الإسلام بها، وحثَّ على تنميتها، لتأثيرها القوي في مسألة التدين.

وهكذا التربية الإسلامية تعتني بكافة جوانب حياة الإنسان.

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٥٢ كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز،.... ح ٢٦٦٤.

(٢) شرح النووي ١٦/٤٣١.

في مسار إدارة الحياة المنزلية يحدثنا جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأطفئوا السراج، وأغلقوا الباب، فإنَّ الشيطان لا يحلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناءً، فإنَّ لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً، ويذكر اسم الله، ليفعل، فإنَّ الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم»^(١).

وفي مسار الحياة الاجتماعية يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ شجرة كانت تؤذي المسلمين، فجاء رجلٌ فقطعها، فدخل الجنة»^(٢).

وفي مسار الذوق والجمال تحدثنا عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقسيت نفسي»^(٣).

وحين أراد أفرادٌ أن يهملوا شؤونهم الإنسانية البحتة للتفرغ لعبادة الله - تعالى - أنكر عليهم ذلك رسول الله ﷺ.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا

(١) أخرجه ابن ماجه ٧٥ / ٤ كتاب الأشربة، باب تحمير الإناء ح ٣٤١٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٢١ / ٤ كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ح ١٩١٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٤ / ٤ كتاب الأدب، باب لا يقل خبثت نفسي، ح ٦١٧٩.

كانهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد عُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١). بل سمى النبي ﷺ تلك الشؤون الخاصة والمتعلقة بجانب الغرائز: سنَّة!

وفي هذا السياق - أعني البناء المتكامل للشخصية - يتحتم اليوم على المنهج التربوي أن يضمّن مقرراته اكتشاف شخصيات المترين وتصنيف أنماطهم، فيصبح محضن التربية نقطة تحوُّل حقيقية في حياة الطالب؛ إذ يكتشف فيه ذاته، ويعرف نمط شخصيته، وفق أسس علمية ومقاييس معتمدة، ويدرّب المربون على الوقوف مع الطلاب في ترشيد طاقاتهم وتوجيهها التوجيه السليم، والخوض بها في غمار المبادرات، الفردية والجماعية، إذ تقوم هذه المبادرات - المحفوفة بالوجود الأبوي للمربي - بصقل شخصياتهم وصناعة البطولة فيهم.

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٣٥٤ كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح ٥٠٦٣.

أحد أبرز الملحوظات على المحاضن التربوية - في الجملة - أنها تتحسس من المبادرات الفردية خشيةً تأثيرها على العمل الجماعي وعلى استقرار البيئة التربوية، دون نظر علمي في كنه هذه المبادرات ولا إعطائها حقها من النظر، والقرآن الكريم أرشدنا إلى الاهتمام بالمبادرات الفردية مهما كانت غرابتها، ومهما كانت الشخصية المبادرة، كما في قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

[النمل: ٢٧، ٢٨].

وكما أن في إهمال المبادرات الفردية مجانية للهدى القرآني، فإن فيه أيضاً كسحاً لأعمدة البنيان الذي شُيِّدَت به هذه الشخصية، وإطفاءً لوهجها، فما تلبث هذه المحاضن أن تخرِّج أجيالاً ضعيفة عاجزة، لا تملك قوة ولا عزيمة.

١ - تربية تعتمد فهم الواقع واستشراف المستقبل

تقام المؤتمرات والندوات التي تناقش واقع المجتمعات، وتستشرف مستقبلها، في كل مناحي الحياة، وتقدم العديد من أوراق العمل المتضمنة للدراسات الميدانية في هذا الصدد.

في واقع الأمر؛ فإنَّ الجانب التربوي ليس غائباً عن هذا النوع من المؤتمرات والندوات، لكنَّ الترجمة العملية لما يقدم من أوراق

ودراسات ضعيفة. كما أنّ ثقافة الدراسات المسحية في الميدان التربوي لا زالت ضعيفة، إذ يمتلك كثيراً من التربويين هاجس التضادّ بين التنظير والعمل، وهو هاجس خاطئ ليس له مستند منطقي.

كل سلوكٍ بشري ينبع من فكرة أساساً، ونحن لدينا وحي الله - تعالى - المتمثل في كتابه وسنة نبيه ﷺ نرجع إليه في كل شؤون حياتنا، ونحتكم إليه في حال اختلافنا، والمشاريع الكبرى لم تأت نتيجة جهود المخلصين فحسب، وإنما سبق ذلك مساحة من التأمل والحوار والنقاش النافع، حتى بلورت أفكار المشاريع، ثم جاء وقت التنفيذ.

حين ألتقي مع إخواني من مختلف المحاضن التربوية، أجدهم مذاهب متنوعة في صياغة المقررات التربوية، وهذا في حدّ ذاته أمرٌ رائع حيث اجتهادية المسألة، لكنني أفجؤهم أحياناً بهذا السؤال: على ماذا بنيت صياغة هذه المقررات؟ فأجد الإجابة أنها عبارة عن انطباع ما تجاه الاحتياجات التربوية!

الخطأ في توصيف المدخلات والبيانات والمعطيات في التخطيط الاستراتيجي ربما تسبب في إخفاق المؤسسة التربوية، ومن أسباب حدوث الخطأ في تلکم الأشياء: ضعف الدراسات

الميدانية المسحية، وبالتالي نحن بحاجة إلى مزيد من الاهتمام بهذا المجال، أعني الدراسات الميدانية.

إنَّ المؤسسات والمحاظن التربوية التي لا تؤمن بجدوى دراسات الواقع واستشراف المستقبل ستظل تترجح تحت نير التأخر والضعف. وفي عصر سهولة الحصول على المعلومات، وكثرة الذين أتقنوا مهارات الدراسات الميدانية؛ فإن المؤسسات والمحاظن التربوية مطالبة بشدة بأن تبني خططها وبرامجها ومناهجها وفق دراسات ميدانية ورؤى استشرافية.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (قدم حذيفة بن اليمان على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةً اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمانُ إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلتُ بها حفصةً إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، وإنما نزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردَّ عثمان الصحف إلى

حفصة، وأرسل إلى كل أفُق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق^(١).

حذيفة يرى اختلاف القُرَّاء حينها مؤشراً على الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب من الاختلاف في كتابهم، ويقوم عثمان بجمع القرآن بناء على دراسة واقع واستشراق مستقبل.

إنَّ عدم اعتبار الدراسات الميدانية مدخلاً في التخطيط التربوي يعدُّ أحد أسباب الجمود في بناء البرامج التربوية، ولا شك أنَّ القصور في فهمنا للواقع، وانعدام الرؤية المستقبلية لواقع الشباب من البنين والبنات لن يُشعرنا بالتحدي، ولن يحفزُ فينا آليات التفكير الإبداعي.

دعونا نتساءل: هل شباب اليوم مثل شباب الأمس؟ وهل الأطفال اليوم هم أطفال الأمس؟ وهل الموارد الثقافية اليوم هي ذاتها الموارد الثقافية بالأمس؟ وهل هناك موارد ثقافية صاعدة تنبأ بخطورة تأثيرها؟

في المملكة السعودية أنشئت الجامعات في أغلب المدن عام ١٤٢٧هـ، فتحول التعليم الجامعي من كونه محصوراً في عدد من المدن الكبرى إلى انتشاره في المدن الصغيرة. وهذا تحوُّل في

(١) أخرجه البخاري ٣/٣٣٨ كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ح ٤٩٨٧.

الواقع التعليمي، سيكون له الأثر الكبير على مستقبل المجتمع، علمياً واقتصادياً واجتماعياً.

كما أن انعكاسات الأحداث السياسية والحروب العسكرية على واقع المجتمعات واضحة التأثير على كافة المستويات.

المسوّغات التي تمت مناقشتها في مبحث (الجيل الجديد) تتطلب فهماً وفهماً، كما تتطلب تنبؤاً بالمستقبل وفق معطيات دراسية معينة.

قد لا تتمكن المؤسسات والمحاضن التربوية من القيام بالدراسات المطلوبة لقلّة المتخصصين، أو للانهماك في الأعمال الإجرائية التربوية، وهذا أمرٌ مفهوم، ويمكن في هذه الحالة تأسيس مراكز للدراسات التربوية واستقطاب المتخصصين إليها والقيام بهذا الواجب الذي طال تأخرنا عنه.

٧ - تربية تفتح علم المتغيرات وتتعايش مع الواقع:

المحاضن التربوية ليست معزولة عن المجتمع منفردة عنه، بل هي عنصر من عناصر المجتمع، وأفراده هم أبناء المجتمع. وبالتالي فإنّ محاولة عزل مجتمع التربية عن الحياة العامة بالكلية غير صحيح، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعيشون في مكة حياتهم المعتادة قبل الإسلام، مع التقيّد بأمر الله - تعالى - في

ذلك؛ كاجتناب الموبقات والكبائر والفواحش، والمحافظة على ما أمرهم الله - تعالى - به كإقامة الصلاة، ولم يكن الواقع المعيشي محل جفاء وانعزال منهم.

نعم! كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم نموذجًا للانعزال المؤقت والجزئي؛ كونها محضناً تربوياً - إن صحت العبارة - ومكاناً صالحاً للعبادة والتعليم والتوجيه، وهذا لا يعارض ما ذكرته آنفاً؛ إذ يتعايش المؤمنون مع مجتمعهم خارج الدار.

لقد كان من السهل على أصحاب النبي ﷺ الكرام أن يعيشوا بعد وفاته في بيئات تختلف كلياً عن بيئاتهم الأصلية؛ لأن تربية النبي ﷺ لم تكن منغلقة منكفئة، فالنبي ﷺ في المدينة تعايش مع قبائل مختلفة، منها اليهودي، ومنها الأعرابي، ولم يمانع من الاستفادة من خطة الفرس في إدارة المعركة وقت الحصار؛ كما في الخندق. ولذلك يقول أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: (قدمنا الشام فوجدنا مراحيض قد بُنيت قبل القبلة فننحرف عنها ونستغفر الله تعالى)^(١).

بل خرج الصحابة الكرام إلى شرق الدنيا وغربها وشمالها وجنوبها وهم يحملون القدرة على التأثير والتغيير، وفي ذات الوقت استطاعوا أن يحافظوا على مكوّنهم العقدي والفكري والسلوكي.

(١) أخرجه البخاري ١٤٦/١ كتاب الصلاة، باب قبلة أهل المدينة وأهل الشام والمشرق ح ٣٩٤.

الطلاب والطالبات الذين نستهدفهم بالتربية ليسوا قوالب جامدة، بل هم يتغيرون في واقعهم ويتفاعلون معه، لذلك يجب على المربين أن يفتحوها بشكل جيد على هذا الواقع ومتغيراته، ويتعرفوا على أحواله ومؤثراته، كما يتعرف الناس عليهم، فليس من العملي أن تتغير ظروف الواقع، ويتغير المجتمع ثم تبقى المقررات التربوية وطرائق التربية راکدة لا تتغير ولا تتفاعل مع محيطها؛ وإهمّة أنها تحافظ على الأصيل من التربية.

إنّ التربية المنغلقة لا تُخرِّج طلاباً قادرين على تحمُّل تكاليف الإيمان والدعوة، وفي ذات الوقت لا يستطيعون التكيّف مع مجتمعهم. حيث إنّ الانغلاق لن يُخرِّج سوى منغلقيين ضعفاء، وإنّ الانفتاح سيُخرِّج المشاركين الأشداء.

والسؤال: هل يستطيع طلابنا وطالباتنا تجاوز إشكالات المتغيرات الراهنة؟ وهل سيكونون قادرين على تجاوز إشكالات المتغيرات الآتية؟ هل تربيتنا ستؤهلهم لاستثمار الفرص الجديدة وتحويل التحديات إلى فرص؟ أم ستخفق وينشأ جيل يسقط أمام المتغيرات والتحديات؟

٨ – تربية تتقن الأدوات والتقنيات والأساليب:

يتميز عصرنا الجديد بأنه عصر المهارات. وعلى أهل التربية أن يُواكبوا عصرهم ذا المهارات.

الإدارة العربية للأمور هي في أصلها إدارة بسيطة، لكنَّ الانفتاح وهيمنة الرأسمالية أضافتا على أعبائنا عبء الإدارة المركَّبة، أو ما نسميه الإدارة الحديثة. والقائمون على المناشط التربوية بحاجة إلى أن يجيدوا هذا النوع من الإدارة. فالتخطيط الاستراتيجي والتخطيط التشغيلي، وصياغة الأهداف، وقراءة المؤشرات، وغيرها.. أصبحت مهارات لازمة لتشييد محضن تربوي.

وصناعة البرامج التربوية بطريقة موضوعية أصبحت أمراً متحتماً في هذا الوقت؛ حفاظاً على الموارد من الهدر، واستباقاً لتحقيق الأهداف. ولذا يجب على محاضن التربية أن تُولي تعليم هذا الفن عنايتها.

واختلاف تشكيل الشخصية عن ماهيتها في الجيل الماضي؛ بفعل الانفتاح الإعلامي وتطوير مناهج التعليم الحكومي.. يحتمُّ علينا تطوير مهارتنا الاجتماعية كمربين. فالتواصل الجيد والحوار الناجح وتقنيتهما تتطلب من أهل التربية العمل على إتقانها ونشر ثقافتهما.

ومما يميز هذا العصر الحضور القوي والمحوري للتكنولوجيا في حياتنا اليومية، بل في حياتنا الوظيفية والعملية، والمجتمع التربوي مُتَّكِلٌ بالتكنولوجيا.. وإنَّ لنا أن نتساءل عن مدى إتقان أهل التربية لإدارة التكنولوجيا في واقعهم التربوي؟

أحد الملاحظات التي تستحق الانتباه هي أن الطلاب اليوم - في الجملة - أكثر تفاعلاً وإتقاناً للتعامل مع التكنولوجيا، مما يجعل المربين في دائرة أقل ضآلة من الطلاب أنفسهم!

وكثير من شؤون الحياة اليوم تنتقل إدارتها من عالم الواقع إلى عالم التطبيقات الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي، وأصبح اليوم من يملك موقعاً في هذا العالم الافتراضي أمكنه التأثير في عالم الواقع والحقيقة. وأعتقد أن من واجبات التربية في هذا العصر أن تدخل هذا المضمار بفاعلية حقيقية لا شكلية.

ويراهن اليوم على تسويق الفكرة كثيرون، وهي مهارة ابتكرها السوق، ويحاول التربويون إدخالها في عالم التربية؛ لقوة تأثيرها في صراع القيم، وهذا أمرٌ محمود، ويحسُن التفات المربين إلى هذا الفن، والتدرب على مهاراته؛ فإنه اليوم من يمسك بزمامه يكون في الصدارة في التأثير.

ولا تزال عجلة التفكير وطرائقه تسير ببطء في محاضن التربية؛ بسبب الجمود وضعف المواكبة والانهماك في التنفيذ، حيث لا يوجد الوقت الكافي لالتقاط الأنفاس ولا للرؤية الشمولية، والتربويون بحاجة ماسة إلى إتقان مهارات التفكير، لا سيما نوعي التفكير الذين سيُحدثان أثراً كبيراً في العمل التربوي؛ الناقد والإبداعي، إلا سنبقى أسيرين للخبرة منقادين للوقوف.

وعدد من المهارات والأدوات اللازمة للتفوق في العمل التربوي، علينا الاعتناء التام بها، لنكون أقدر على المنافسة في غرس القيم.

وبعد.. فهذه أهم الخطوط العريضة المؤطرة لبرامج ومشاريع تربية النشء، أدى الاجتهاد إلى حصرها في هاتيك النقاط، ولربما أدى اجتهاد القارئ إلى إضافة نقاط أخرى، دعاه نظره وتأمله إليها.

المبحث الرابع: مع المحاضن التربوية

من أعظم نعم الله على مجتمعاتنا انتشار المحاضن التربوية في المدن والعواصم والقرى والأرياف. حلقات تحفيظ وتعليم القرآن الكريم، وجماعات التوعية الإسلامية بمدارس التعليم العام في جميع مراحلها، ومصليات مدارس البنات، والمكتبات، وأنشطة الكليات والجامعات، ودوريات الموظفين، كلها باتت فعاليات طبيعية في مجتمعاتنا.

وتخرَّج في هذه المحاضن علماء ومشايخ ودعاة وطلبة علم ومربون أفضل، كما تخرج عليها من هم الآن في مناصب عليا، ووظائف مرموقة، وأطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة ورجال أعمال.

ولقد تغلغلت هذه المحاضن في مجتمعاتنا إلى أن أصبحت مكوِّناً فاضلاً من مكونات المجتمع.

وبفضل الله - تعالى -، ثم بفضل الجهود التربوية المبذولة في هذه المحاضن قاوم المجتمع التغريب بشكل جيد، واكتسب الجيل حصانة فكرية من تسرُّب المفاهيم المخالفة والأفكار الهدامة بدرجة عالية، وقاومت الفتاة الكثير من وسائل الإغراء ودعوات التعري والرذيلة والتمرد، وتعلمت الناشئة حينها العديد من مفاهيم الدين وأحكامه التي لا يزالون يعملون بها في حياتهم، وانصقلت مواهب البنين والبنات في هذه المحاضن؛ فظهرت

لوامع شخصياتهم ودرر إبداعاتهم في فنون وتخصصات شتى .
لقد وجد كثيرٌ من الآباء والأمهات في هذه المحاضن متنفسًا
بريئًا وهادفًا يدفعون إليه أبناءهم وبناتهم دون خوف أو قلق على
أخلاقهم أو ديانتهم.

وواجبنا تجاه أرباب هذه المحاضن شكرهم، والاحتفاء بهم،
وإجلالهم والدفاع عنهم والوقوف معهم في قضاء حوائجهم وتسهيل
المصاعب لهم. هذا أقل ما يمكن تقديمه لمن يحرسون المجتمع،
ويربون الناشئة ويغرسون الفضائل. وواجبنا تجاه هذه المحاضن
الدعم والمساندة والتطوير والحماية والشعور بأهمية بقائها.

كما يجب علينا تجاه هذه المحاضن وأربابها تقويمها وتسديدها،
وتقديم النصح والمشورة لهم.

وسأطرح في هذا الإطار عددًا من المسائل.. أرجو أن تكون
نقطة التفات وعناية..

لا شك أن التغيرات الاجتماعية والثقافية التي طرأت على
مجتمعاتنا ألقت بظلالها على الواقع التربوي في المحاضن التربوية.
لقد أصبحت مظاهر هذه التغيرات لا تخفى على ذي عينين.

وليس في هذا الأمر جديد، فمن الطبيعي حدوث التغيرات في
المجتمع، بل إن شطرًا من هذه التغيرات يسير في الاتجاه الصحيح،

أني أنه ليس كل تغير له أثر سلبي، بل هناك من التغيرات التي وددنا أنها سبقت هذا الزمان؛ لما لها من تأثير إيجابي بالغ.

علي أية حال.. ما يهمنا هنا هو تلك الظلال الملقاة على واقع المحاضن!

لقد أحدثت هذه التغيرات ارتباكاً في بناء الفكرة التربوية لعدد من المحاضن التربوية، وبات بعض المربين لا يعرف على وجه التحديد ما هو دوره الحقيقي في المحضن الذي ينتمي إليه؛ على سبيل المثال.

ومع حدوث التغيرات التي أشرت إليها هنا، وتحدثنا عن جزءٍ منها بالتفصيل سابقاً، فإنَّ المحاضن التربوية خضعت - بشكل أو بآخر - إلى تطير جديد، اختياراً أو اضطراراً، بقصد أو بغير قصد، لكنها مع ذلك لم يتضح لديها هذا التطُّر الجديد، فحصل الارتباك لدى بعض المربين.

بناء الفكرة التربوية:

الفكرة التربوية هي التصوّر المتشكل - في ذهن المربي ووجدانه - عن هوية المحضن التربوي الذي يعمل فيه، والغاية التي تأسس لأجلها.

وارتباك الفكرة التربوية هو عدم اتساق هوية المحضن التربوي وغاياته مع ماجريات التربية من إجراءات وسلوك ومعالجات.

ارتباك الفكرة التربوية لدى المربين والمعلمين تعني حدوث غبش في تصوراتهم عن المحضن التربوي، غبش في ماهية المحضن وكنهه وهويته، وأهدافه على وجه التحديد، ودور المربي، ودورة الحياة التربوية، ودورة الحياة العملية. وهذه النقاط سيكون لها تأثير ما على رؤيته للمعالجات الموقفية، ومواصفات المخرج التربوي الذي ينشده.

وارتباك الفكرة التربوية سيؤدي - حتمًا - إلى ارتباك السلوك التعليمي والتربوي، وسيحدث تشتتًا في اتجاهات المربين والمعلمين، وسيقتطع جزءًا من وقتهم في نزاعات داخلية، أو على الأقل في النقاشات والمدخلات.

ومن المظاهر الدالة على وجود ارتباك في الفكرة التربوية لدى بعض المعلمين ارتباكهم في التعامل مع المواقف المختلفة داخل المحاضن، وارتباكهم في معالجة الأخطاء الواردة من الطلاب، وارتباكهم في نقاشات القضايا التربوية المتعلقة بالمحضن، والحاصل أن هؤلاء الذين لديهم ارتباك في الفكرة التربوية يمارسون التربية والمعالجات والنقاشات وفق ما تكوّن لديهم من خبرات سابقة، أو قراءة خاصة والتي بدورها أفرزت فكرة تربوية ما في ذهن كل واحد منهم، قد لا تتوافق مع رؤية وأهداف المحضن الذي يعمل فيه.

من هنا نجزم بأنَّ على القائمين على المحاضن التربوية الالتفات إلى هذه النقطة الواردة عليهم في المعالجات.

من أهم الأمور في بناء الفكرة التربوية: هوية المحضن!

وعلى سبيل المثال: هل هو محضن طليعة قيادية؟

هل هو محضن تربية أصيلة؟

هل هو محضن نخبة أم هو محضن عام؟

هل هو محضن متخصص أم هو محضن عام؟

هل هو محضن استقطاب؟ أم هو محضن تأصيل؟ أم هو

محضن تمحيص؟

إذا قلنا: إنه محضن طلائع تربوية؛ فما هي مواصفات هذه

الطلائع؟ وما هو المرجو منها لاحقاً؟ وما هي المناهج المفترضة

لهذا التوجُّه؟ وما نوع المربين الملائمين لهذا النوع من المحاضن؟

وما هي صفات هذا المحضن؟ بنيته وشكله وأدواته..

وإذا قلنا: إنه محضن تربية أصيلة، بغض النظر عن مستقبلها

العملي؛ فما هي صفات المخرج التربوي هنا؟ وما هي المناهج

المفترضة لهذا التوجه؟ وما نوع المربين الملائمين لهذا النوع من

المحاضن؟ وما هي صفات هذا المحضن؟ بنيته وشكله وأدواته.

وهكذا.. دواليك.

حلقة تحفيظ القرآن الكريم (س) في مكانٍ ما (ص). هذه الحلقة الموجودة على أرض الواقع هل هي حلقة نُخبة لتخريج حفاظ القرآن الكريم كاملاً؟ أم أنها حلقة لاستقطاب الطلاب وتربيتهم على منهج القرآن الكريم؟ أم أنها حلقة لتخريج مربين يربون الأجيال القادمة على كتاب الله تعالى؟ أم أنها تتسع لذلك كله؟ أم أنها حلقة لأغراض تربوية أخرى؟

لكل إجابة اتجاه ومعايير ومواصفات وأدوات وبيئة ومربون ملائمون! وليس المقصود حصر الإجابات، بل ربما تكون لدى المربين إجابات أخرى للأغراض التربوية من الحلقات، وربما يجتمع عدد من الإجابات في المحضن الواحد، وربما لا تجتمع.

فهل حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية والذي يفوق عددها العشرين ألف حلقة للبنين والبنات، واضحة الهويّات؟ وهل لديها إجابات واضحة عن هذه الأسئلة؟

وهل لدى حلقات تعليم القرآن الكريم في العالم كله إجابات واضحة ودقيقة عن هذا النوع من الأسئلة؟

وإنما ذكرت حلقات تحفيظ القرآن الكريم على سبيل المثال، وإلا فهناك العديد من أنواع المحاضن التربوية، والتي ينبغي عليها أن تجيب عن هذه الأسئلة كذلك.

ما هو سرُّ النجاح الباهر الذي حقَّقه الشاب مصعب بن عمير رضي الله عنه فترة نزوله في يثرب؟ لا شك أن دقة الصورة لديه كانت عالية جداً، ولربما كان ينظر إلى مستقبل مشروعه بوضوح. وعليه فلقد أصبح من الواضح لديه ماذا يجب عليه أن يعمل ابتداءً، وماذا يجب عليه أن تكون ردود أفعاله تجاه المواقف والسؤالات والماجريات.

وحين أرسل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فترُدُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

إنك تجد في هذه الخطة وضوح الإجراءات وكشفاً لهوية المخاطبين، ولا شيء بعد ذلك إلا النجاح في هذه المهمة التربوية؛ لا تزال اليمن إلى اليوم معقلاً من معاقل الإسلام.

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٠ كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

واليوم ازداد التنوع في شرائح البنين والبنات، وأصبح لزاماً علينا أن نُواكب هذا التنوع في شرائحهم بتنوع في المحاضن التربوية وأهدافها وهوياتها، يجعلنا قادرين على استيعاب هذه الشرائح المختلفة والمتنوعة، وذلك ببناء فكرة تربوية واضحة في أذهان المربين، متفقين عليها.

صياغة الأهداف العامة:

إذا حددنا هوية المحضن التربوي، وبنينا فكرته، وصنعنا رؤيته، فأول خطوة تليها هي صياغة الأهداف العامة له.

لقد كان من السائغ إلى حدٍ كبير أن تحمل الكثرة من المحاضن التربوية أهدافاً موحّدة، ربما لوجود التشابه الكبير بينها في أغلب العناصر: الطلاب، المجتمع،.. الخ، إلى حدِّ الاقتراب من تطابقها.

أما اليوم، ونحن نرى تغيرات شتى في أنماط الحياة، وتحولات هائلة في أوساط النشء والشباب، فإنه يتحتم علينا إعادة النظر في أهداف كل محضن، وتمييز أهداف المحاضن الاستقطابية عن أهداف المحاضن التأصيلية، وأهداف المحاضن المتخصصة عن أهداف المحاضن العامة، ونحو ذلك، ولو كانت تحت مسمى واحد؛ حلقات تحفيظ، مكاتب، نوادٍ، دور الفتيات، مصليات المدارس، مراكز الأحياء.. الخ.

وصياغة الأهداف العامة بحاجة إلى دراسة لواقع مجتمع المحضن؛ دراسة موضوعية واقعية ترتبط بصياغتنا للأهداف العامة كارتباط الورقة بالقلم؛ حيث تمثل الورقة دراسة الواقع المحيط، وأما الكتابة بالقلم فتمثل صياغة الأهداف التربوية.

وعلينا - في هذا السياق - أن نلتقي بالشباب ونتعرف على همومهم واحتياجاتهم وتطلعاتهم، كما علينا أيضاً أن نلتقي بشرائح مجتمعهم المتنوعة، كالآباء والأمهات والمعلمين والموظفين وأصحاب رؤوس الأموال، لنستمع إلى حديثهم عن التربية وعن واقع الشباب وعن آمانياتهم التربوية تجاه الشباب.

ذات مرة، وفي حديث مع إخوة لي ممن اصطفاهم الله - تعالى - لهذا العمل الشريف - أعني التربية -، وقد تحدثت عن هوية المحضن، فقال لي أحدهم: نحن نرى أن نعمل بالطريقة الفلانية. فقلت له: هذا جيد؛ طالما أن هذا اختياركم، ولكن لدي سؤال: هل كان هذا القرار مبنياً على دراسة موضوعية عن مجتمعكم؟ فقال: لا. قلت: إذن، قراركم هذا لا يمكن الوثوق به!

لا يمكن الوثوق به؛ لأنه ربما لا يكون هذا القرار في الاتجاه الصحيح، وربما لا يتطابق مع فكرة المحضن ورؤيته.

كما أن صياغتنا للأهداف العامة بحاجة إلى فهم أولوياتنا الدعوية والتربوية، وهذه المسألة من الخطورة بمكان؛ إذ لا يكون

فهم الأولويات الدعوية والتربوية إلا نتيجة لفهم الفكرة التربوية وفلسفة العمل التربوي الذي نحن بصدد.

والمحاضن التربوية لديها شيء من تلبية الاحتياجات المهارية التربوية، لكنها تفتقد إلى جزء كبير من فلسفة العمل التربوي، مما يدفعها إلى الوقوع في كمين الأخطاء. وتفتقد إلى العمق الشرعي لدى شرائح من العاملين، والعمق الشرعي يمثل المنطلق الذي تستند إليه ممارساتنا التربوية وتنطلق منه.

العاملون في الحقل التربوي بحاجة إلى جرعات فكرية تتعلق بثقافتهم التربوية، تثري أذهانهم، وتعمق مفاهيمهم، وتصنع لديهم سُلماً جيداً للأولويات الدعوية والتربوية. وعلى الإدارة التربوية أن تتبنى تغذية العاملين في مسار الفكر التربوي وامتداداته، فإنهم بذلك يجددون العقلية التربوية لدى العاملين، وسينعكس أثر ذلك إيجاباً على المحاضن التربوية، حتماً. فإن فهم الأولويات الدعوية والتربوية سيساعد العاملين في الحقل التربوي على صياغة الأهداف العامة.

من نحن؟ وماذا سنكون؟

هذان السؤالان من أقوى الأسئلة التي تمزق ذهن المربي؛ حين يكونان بلا إجابات.

من معالم المحضن الجيد أن المربين فيه يعرفون مَنْ هم على وجه التحديد؛ هل هم غارسو قِيم؟ أم هم صانعو قيادات؟ أم هم أطباء سلوكيون؟ أم هم مؤدبو صبيان؟ أم هم حاضنو تائهين؟ هناك فروقات، تقل أو تكثر بين المهام لكل نوع من المربين، ولربما كان للمربي أكثر من دور يقوم به في المحضن التربوي، كأن يكون غارسًا للقيم وحاضنًا للتائهين.

المهام الملقاة على غارسي القيم تختلف في بعض جوانبها عن مهام حاضني التائهين، وأعني بهم من تاهوا عن الطريق المستقيم، كما تختلف في بعض جوانبها وأدواتها عن مهام مؤدبي الصبيان.

غارسو القيم يعتنون بإعادة ترتيب أولويات القِيم، وأدوات غرسها، ومهارات التربية التفاعلية، وعليه فإنَّ المخاطبين هنا لهم مواصفات معيَّنة، ويُنْتَظَرُ منهم أن يكوّنوا مخرجات ذات مواصفات معيَّنة أيضًا.

وصانعو القيادات يعتنون بصقل موهبة القيادة لدى أشخاص لديهم جاهزية القيادة، ولديهم مواصفات أخرى تابعة لمسألة القيم والاتجاهات، وهم - أعني صانعي القيادات - لهم مواصفات تختص بهم، تمكّنهم من أداء مهمتهم على أفضل ما يكون، قدر المستطاع.

وهنا يحضرني - مرة أخرى - نموذج مصعب بن عمير رضي الله عنه؛ حيث يعتبر مثلاً لتكليف الأشخاص حسب مواصفاتهم، فمصعب رضي الله عنه قام بإعداد قيادات الأنصار وتهيئتهم لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة لم تشهد لها البشرية مثيلاً من التضحية الحقيقية في سبيل نصرة النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد قام مصعب رضي الله عنه بهذا الدور رغم وجود من هو أفضل منه عند الله وأقوى إيماناً، كأبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، والمسألة هنا ليست تعني من هو الأتقى، وإنما تعني من هو الأكفأ للقيام بهذه المهمة على وجه التحديد، ما هي مواصفاته وقدراته.

وإذا كان المربي طبيباً سلوكياً، فإن عمله سيختلف، وسيتحول من كونه غارس قيم ومؤصلاً إلى معالج مواقف ومصحح أخطاء، وهو مشغول عن غرس العديد من القيم بالحفاظ على الهوية العامة والأمور الكلية. وهذا المحضن بهذه الصفة تحدده الاحتياجات التربوية، لا الانطباعات المتوهمة.

وقل مثل ذلك مع حاضني التائمين ومؤدبي الصبيان.

وفي جانب آخر، تجدر الإشارة إلى أن مسألة اكتشاف المربين، والتعرف على أنماط شخصياتهم وتعريفهم بها وتعريفهم بفرص العمل التربوي الملائمة لشخصياتهم وتوجيههم إلى المحاضن

المناسبة والأعمال التربوية المناسبة كذلك؛ بات واجباً من الواجبات الملقاة على عاتق المحاضن التربوية.

قد يشتكي بعض مشرفي المحاضن من حماس مُرَبِّ ما، أو يشتكون من إهمال مُرَبِّ آخر. في الحقيقة؛ إن عدم الإجابة عن سؤال: من نحن هو سبب مهم من أسباب هذه المشكلات، وحين يتفهم المربي من هو في هذا المحضن؛ فإن تركيزه الذهني ووجدانه وحماسه سيتوجه نحو ما هو صواب.

أما السؤال الآخر، وهو أشدُّ ضراوة من الذي قبله، لا سيما لدى المربين الذين يتمتعون بذكاء جواني عالٍ، وهو: ماذا سنكون؟

ماذا سنكون بعد ٥ سنوات؟ ١٠ سنوات؟ ٢٠ سنة؟

في واقع الأمر؛ إنه لا توجد إجابات قطعية عن هذا السؤال، لا توجد عند المربي، ولا توجد عند مشرفي المحاضن كذلك! لكنَّ المربي يهمله كثيراً أن يجد ذاته تنمو أثناء قيامه بالمهام التربوية؛ نمواً يجعله يثق بمستقبله المهني التربوي، كما يجعله يصنع أفكاره ومشاريعه المستقبلية التي يخدم بها أمته في مسارها التربوي أو الدعوي بشكل عام.

لا أقصد بهذا الحديث ما اعتاده موظفو المؤسسات الحكومية والتجارية من النظر إلى المناصب والمكاسب، ألبتة. وإنما أتحدث

عن هموم المربي التي تلازمه في ماجريات حياته والتي تتمحور حول خدمة دينه .

ومرة أخرى.. فإن مسألة الأنماط الشخصية رائعة التأثير في هذا السياق، فالقدرة الإدارية - على سبيل المثال - موجودة لدى بعض المربين، وأعني أنه ربما يكون من المناسب جداً أن يتحول المربي من المسار التعليمي إلى المسار الإداري داخل الدائرة التربوية، خاصة إذا كبر سنه وازدادت الفجوة الثقافية بينه وبين الطلاب. وحينها لن تكون المناصب الإدارية تشريفاً، وإنما ستكون تكليفاً دعت الحاجة إليه.

كما أن بعض المربين لديه القدرة الكتابية والتأليفية، لحدّة الذكاء الذاتي لديه، ومعنى ذلك إمكانية تحول مساره العملي من التعليم إلى الكتابة، وقل مثل ذلك في القدرة التقنية والإعلامية والتجارية وغيرها. وعندما يجب المحضن التربوي عن سؤالي من نحن؟ وماذا سنكون؟ إجابة علمية وعملية كذلك؛ فحينها سيعرف المربي على وجه الدقة الإجراءات والممارسات الواجب القيام بها في هذا المحضن.

نعم! السؤال الآخر: ماذا سنكون؟ ليس له علاقة مباشرة بهذه الممارسات والإجراءات، لكن الإجابة عنه ستؤثر المعلمين رضا وطمأنينة عن محضنهم وعن الأسلوب الإداري المتبع، وسيشعرهم بأنهم في نموّ دائم وتحسين مستمر، وهذا الشعور

بحد ذاته دافع قوي للعمل والإنجاز، وهو أحد المحفزات للعمل وللانتماء إلى فريق العمل.

المراجعات الموسمية:

لعله من المناسب هنا أن أقترح على إخواني وأخواتي في المحاضن التربوية اقتراحًا يسيرًا، وهو أن يجتمع العاملون في المحضن بشكل موسمي بغرض المناقشة والمراجعة، وتقصي الثغرات واستلهاهم فرص النجاح، كما أقترح عليهم أن يُشركوا غيرهم من التربويين المتخصصين في هذه المناقشات، وأن يرسخوا فكرة النقد من الداخل باعتبارها دعامة في البناء الصحيح، لا باعتبارها فرصة للمحاسبة والتلاوم، أو نشرًا للغسيل.

النقد من الداخل - على الدوام - يبني ويثري ويبعث على الإبداع. لقد كان اختلاف القراء من التابعين على أحرف القرآن، حين اجتمع جيش الشام بجيش العراق، وتخطئة بعضهم بعضًا مثار نقد لدى حذيفة رضي الله عنه، فتوجه إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وناقشه في هذه المشكلة الناتجة عن عمل صحيح، وهو إقراء الصحابة رضي الله عنهم للناس في الأمصار كتاب الله تعالى. لقد كان إفرازًا يستدعي المراجعة. فنبعت فكرة توحيد المصاحف على حرف من القرآن، وكتابة أمهاتها ونشرها في الأمصار.

لقد كانت هذه الفكرة والعمل عليها بمثابة إصدار جديد وإنهاء صلاحية الإصدار القديم. ربما تحتاج محاضرتنا ومؤسساتنا التربوية إلى تدشين الإصدار الجديد من هويتها، وهذا الأمر لا يخرجها عن سياق ما هو طبيعي، ولقد اعتادت الشركات الكبرى والمؤسسات الحكومية على فعل ذلك، الأمر الذي يزيد من ثقة المستفيدين بها. ومن المؤكد أنَّ النقد من الداخل والمراجعات الموسمية بحاجة إلى شجاعة أدبية كافية، تؤهّل العاملين للنقاش دون خوف من سوء المصير، أو محاسبتهم على التجاوز، ونحوه. كما أنها بحاجة إلى تجرّد في المقصد وإخلاص في النية يجعل من نقاشاتنا وسيلة للنجاح، لا أسلوباً في التلاوم وإلقاء التُّهم والانسحاب من الأخطاء، وهذا هو مقتضى العمل بروح الجماعة.

المبحث الخامس:

ركائز النجاح في المحاضن التربوية

يتطلب المحضن التربوي - أيًا كان نوعه - ثلاث ركائز يقوم عليها، وفي كل ركيزة توجد ثلاثة عناصر مهمة هي مكونات هذه الركيزة. وبقدر اكتمال هذه الركائز ومكوناتها يكتمل النجاح والتأثير في المحضن التربوي، وبقدر نقص شيءٍ منها يتأثر النجاح والتأثير سلبيًا. وهذه الركائز الثلاث هي: دفاء الإخوان، وطعم الإيمان، وتحرير الإنسان. وتفصيل كل منها كما يلي:

الركيزة الأولى: دفاء الإخوان:

وهي ركيزة - كما تقرأ من عنوانها - تتناول الجانب النفسي والاجتماعي لدى المتربي. فإن المحضن التربوي الذكي هو الذي يفتن جيدًا إلى المسألة الإنسانية لدى أفرادهِ. والقرآن الكريم يشير إلى خطورة هذه المسألة في التأثير، ويجعل من وجودها منةً ونعمة. قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

من أبرز معالم الدعوة الإسلامية في العهد المكي تعيين دار الأرقم بن أبي الأرقم محضنًا يأوي إليه من آمن برسالة محمد ﷺ ليجد فيه العلم والإيمان، كما يجد فيه العطف والحنان. ولقد كانت هذه الدار كذلك كما أراد لها النبي ﷺ أن تكون؛ فكان المؤمن يجد

فيها المجتمع الصغير الجديد، والبديل عن المجتمع المنحرف..
بعموم مكوناته.

ولا يكتمل هذا الدفء الذي ينشده المتربي في المحضن
التربوي إلا بتوفر ثلاثة عناصر مهمة:

أولها: المصاحبة:

وأعني بها مصاحبة المربي لمن يريبه؛ المصاحبة بكل ما تعنيه
هذه الكلمة.

فماذا تعني هذه الكلمة؟

يقول ابن فارس: الصاد والحاء والباء أصلٌ واحد يدل على
مقارنة شيء ومقاربتة^(١). ومن معاني المصاحبة: المعاشره
والملازمة، ومن مقتضياتها حفظ الأصحاب لبعضهم، والانقياد
والمتابعة كذلك^(٢). هذه معاني كبيرة تحتويها لفظة (المصاحبة).

لم يكن المؤمنون الذين ربّاهم النبي ﷺ تلامذة ولا طلاباً بكامل
المعاني لهذين اللفظين، وإنما كانوا (أصحاباً) له. وكذلك الحال
مع ابن مسعود وأبي الدرداء وابن عباس وعلي بن أبي طالب وزيد
بن ثابت رضي الله عنهم وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ الذين قاموا بالدور

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٤.

(٢) انظر: لسان العرب ١/ ٥١٩ و_النهاية لابن الأثير ٣/ ١١.

التربوي والتعليمي بعد موته، كان لهم أصحاب وليس تلامذة ولا طلاباً، وكذلك كان الراسخون في العلم بعد ذلك، قال أبو إسحاق الشيرازي: (خرجت إلى خراسان، فما دخلت بلدة إلا كان قاضيها أو خطيبها أو مفتيها من أصحابي)^(١).

تربية النبي ﷺ للمؤمنين على أنهم (أصحاب) لها دلالة عميقة في الجو العاطفي الذي يجلّل هذه العلاقة بينه ﷺ وبين أولئك المترين ﷺ، إنها تعني المعاشة والمصاحبة والملازمة، كما تعني وجود مقتضيات الصحبة كالانقياد لما هو خير عند الطرفين، ومتابعة كل صاحب لصاحبه. عن جابر ﷺ قال: (كان النبي ﷺ إذا مشى؛ مشى أصحابه أمامه، وتركوا ظهره للملائكة)^(٢).

وفي صورة أخرى تبين بجلاء كيف كان المرابي المعصوم ﷺ يجلس مع أصحابه، يقول أنس بن مالك ﷺ: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقّله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب! فقال له النبي ﷺ: «قد أجبّتك». فقال الرجل للنبي

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤٦٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١ / ١٦٠ كتاب السنة، باب من كره أن يوطأ عقبه ح ٢٤٦.

ﷺ: إني سائلك فمشدّد عليك في المسألة؛ فلا تجد عليّ في نفسك. فقال: «سلّ عما بدالك»... الحديث^(١).

إنّ أولئك الذين يؤمّون المحاضن التربوية كل يوم بحاجة إلى الشعور بدفء الصحبة والأخوة شعورًا حقيقًا يملك وجدانهم، ويبعثهم على حبّ حقيقي لمعلميهم، وتأمل معي حب أصحاب النبي ﷺ له، وكيف كانوا يعبرون عنه، إنك تحس - وأنت تقرأ مروياتهم - بخلاجات نفوسهم وهمهمات صدورهم إذ يعبرون عن ذلك الحب العميق.

عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: (ما شممتُ شيئاً عنبراً قط، ولا مسكاً قط، ولا شيئاً قط أطيّب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسستُ شيئاً قط، ديباجاً ولا حريراً ألين مسّاً من رسول الله ﷺ). قال ثابت: يا أبا حمزة! ألسّت كأنك تنظر إلى رسول الله ﷺ، وكأنك تسمع إلى نغمته؟ فقال: (بلى، والله إني لأرجو أن ألقاه يوم القيامة، فأقول: يا رسول الله! خويدمك. قال: خدمته عشر سنين بالمدينة وأنا غلام، ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن يكون، ما قال لي فيها: أف، وما قال لي: لم فعلت هذا، أو ألا فعلت هذا)^(٢). الكثير من الآثار التي يتحدث فيها الصحابة الكرام عن وصف النبي ﷺ: شكله

(١) أخرجه البخاري ٣٩ / ١ كتاب العلم، باب ما جاء في العلم ح ٦٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند - ترتيب الشامي ١٥ / ٦ ح ٨٦١٤.

وخلقِه وتعاملِه تشفُّ عن حب عميق لهذه الشخصية، لما كانت تتمتع به هذه الشخصية من قدرة على تحمل تكاليف الصحبة.

وعن حميد، قال: سمعت أنسًا - رضي الله عنه -، يقول: (خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصب والجوع قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأَنْصار والمهاجرة». فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا)^(١).

وعن البراء - رضي الله عنه -، قال: (رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى الترابُ بياضَ بطنه، وهو يقول: «لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينتنا علينا، وثبَّت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أئينا»)^(٢).

هذه صورة من صور كثيرة جدًا تعبَّر عن مشاركة النبي ﷺ لأصحابه، ولولا خشية الإطالة لسردت الكثير من الصور، لكنني أكتفي بما سبق لظني أن القارئ الكريم قد مرَّ عليها في قراءاته.

(١) أخرجه البخاري ٣١٥/٢ كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال ح ٢٨٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٦/٢ كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق ح ٢٨٣٧.

وثانيها: المواساة:

والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق، وتأسوا بمعنى تعزّوا، وآسأه بماله: أناله منه^(١).

المحضن الذكي هو الذي يواسي فيه المرابي المتربين، ويواسي فيه المتربون بعضهم بعضاً، ويواسي فيه المتربون من يقوم على تربيتهم. إنه جوُّ من الإخاء يواسي فيه الإخوة بعضهم بعضاً في هذا المحضن، فيساعد قوئهم ضعيفهم، وغنيهم فقيرهم، وعالمهم جاهلهم. يعزون بعضهم في المصائب، ويزورون مريضهم على فراشه، ويعينون عاجزهم في قضاء حوائجه.

بهذا يشعر المتربون بدفء المحضن، وتُشبع حاجاتهم النفسية والاجتماعية.

لقد آخى النبي ﷺ: بين أصحابه مؤاخاةً مواساةً مرتين؛ مرة في مكة، والمرة الأخرى المشهورة في المدينة عقب الهجرة. قال ابن حجر - رحمه الله -: (وقصة المؤاخاة الأولى [يعني بمكة] أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر رضي الله عنهما): «آخى رسول الله ﷺ: بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان، وذكر جماعة؛ قال: فقال علي: يا رسول

(١) لسان العرب ٣٥/١٤.

الله! إنك أخيت بين أصحابك فمن أخي؟ قال: (أنا أخوك)، وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به^(١).

غير أن هذه المؤاخاة لم تبلغ مرتبة التوارث والتقاسم. أما المؤاخاة المشهورة بالمدينة عقب الهجرة فهي مفخرة الإسلام القيمة؛ حيث تنازل الناس عن شطر من أموالهم وضياعهم لأصحابهم المهاجرين.

العديد من المواقف تُشعرُك بأن المواساة جزءٌ أصيل في أدبيات التربية في زمنه ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (الله الذي لا إله إلا هو! إن كنت لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجرَ على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله؛ ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله؛ ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم رضي الله عنه، فتبسم حين رأني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «الحق». ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل فوجد لبنًا في قده، فقال: «من أين هذا اللبن؟». قالوا: أهدها لك فلان أو فلانة. قال: «أبا هر». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي».

(١) فتح الباري ٧/٣١٨.

قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فسأني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة! كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم. وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدُّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال: «يا أبا هر». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «خذ فأعطيهم». قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هر». قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت». قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «اقعد فاشرب». فقعدت فشربت، فقال: «اشرب». فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلماً. قال: «فأرني». فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة^(١).

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٨٢ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ح ٦٤٥٢.

تأمل ألفاظ رواية أبي هريرة رضي الله عنه هذه. (فتبسم حين رأني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر») تبسم النبي صلى الله عليه وسلم حين رآه ومعرفته ما بنفسه من الجوع وقراءته لملامح وجهه، ثم تدليله في النداء: أبا هر، ثم شربه الفضلة، بل تعرّض أبي هريرة للناس.. كلها إشارات جلية على أنّ إشباع الحاجة المادية من الطعام والشراب كانت مما اشتملت عليه معالم التربية إذ ذاك. ليس هذا خاصًا بأبي هريرة رضي الله عنه بل شمل أهل الصفة جميعًا، وهم يبلغون العشرات.

وفي حادثة أخرى يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (قال أبو طلحة لأُم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا! أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم. فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها، فلقت الخبز ببعضه، ثم دسّته تحت يدي، ولائتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه الناس، فقامت عليهم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرسلك أبو طلحة؟». فقلت: نعم. قال: «بطعام؟». فقلت: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: «قوموا».

فانطلق وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم! قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم! فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي

رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم، ما عندك؟». فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ، وعصرتُ أم سليم عَكَّةً فَأَدَمْتُهُ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «اأذن لعشرة». فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «اأذن لعشرة». فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «اأذن لعشرة». فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «اأذن لعشرة». فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً^(١).

قال ابن حجر - رحمه الله -: (قد وقع في حديث طلحة بن عمرو عند أحمد وابن حبان والحاكم: كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريفٌ نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة.. ومن طريق نعيم المجرم عن أبي هريرة: كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر، فيبقى من بقي عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتي النبي ﷺ بعشائه، فتعشى معه، فإذا فرغنا قال: «ناموا في المسجد».. ولأبي نعيم في الحلية من مرسل محمد بن سيرين: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قسم ناساً من أصحاب الصفة بين ناسٍ

(١) أخرجه البخاري ٥٢٢/٢ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ح ٣٥٧٨.

من أصحابه، فيذهب الرجل بالرجل والرجل بالرجلين حتى ذكر عشرة.. الحديث^(١).

ومن الملاحظ لمن يتتبع الآثار المتعلقة بالمواساة أنها لا تقتصر على مسألة اهتمام النبي ﷺ بأصحابه، بل تتعدى إلى ما هو أكثر من ذلك! إذ كان الصحابة الكرام يجدون في رسول الله ﷺ ملاذاً لهم في الأزمات المالية التي تعترضهم وتعترض حياتهم. عن عامر، قال: (حدثني جابر رضي الله عنه أن أباه توفي وعليه دين، فأتيت النبي ﷺ فقلت: إن أبي ترك عليه ديناً، وليس عندي إلا ما يخرج نخله، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء. فمشى حول بيدر من بيادر التمر فدعا، ثم آخر، ثم جلس عليه، فقال: «انزعه». فأوفاهم الذي لهم وبقي مثل ما أعطاهم)^(٢).

وعنه رضي الله عنه أيضاً قال: (مرضت مرضاً، فأتاني النبي ﷺ يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي عليّ، فتوضأ النبي ﷺ ثم صبّ وضوءه عليّ، فأفقت. فإذا النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! كيف أصنع في مالي، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث)^(٣).

(١) فتح الباري ١١/٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٣/٢ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح ٣٥٨٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥/٤ كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه، ح ٥٦٥١.

لقد كانت هذه المواساة سمةً من سمات أصحاب النبي ﷺ. ستعرف ذلك إذا قرأت هذا الأثر العظيم: عن أبي هريرة ؓ قال: (قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسام بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا»). فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا^(١). فهؤلاء الأنصار يقترحون على النبي ﷺ استقطاع شطر من أراضيهم الزراعية هبة منهم للمهاجرين. لكن النبي ﷺ يرفض هذا الاقتراح لما فيه من إضرار مادي عليهم، لكنه يقبل الاقتراح الآخر؛ وهو أن يتولى المهاجرون مساعدة الأنصار في القيام على الزراعة ومتطلباتها من السقاية والرعاية، مقابل أن يكون لهم نصيب من الثمر، وتبقى الأصول في ملك الأنصار. ولقد خلد الله - تعالى - في كتابه كرم الأنصار ومواساتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وئالها: الثبيت:

وأعني به أن يكون المحضن مُعيناً للمتربي على الثبات على الإيمان والطاعات. وبهذا يجد المتربي في إخوانه ومعلميه طوق نجاة من الانحراف وعصمةً من الانتكاسة.

(١) أخرجه البخاري ١٥٣/٢ كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمرة، ح ٢٣٢٥.

عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسدي رضي الله عنه - وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدمون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكُمْ وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات ^(١).

هكذا ينبغي أن يكون الحال في المحاضن التربوية: يجد الطلاب فيها ما يثبت الإيمان في قلوبهم، سواء من زملائهم أم من معلمهم. وفي حين قسوة قلب أحدهم أو غفلة منه أو تقصير في طاعة أو تفريط في واجب؛ يجد في هذه المحاضن ما يردّه إلى

(١) أخرجه مسلم ٢١٠٦/٤ كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... ح (٢٧٥٠).

صوابه، ويعيد إليه رقة قلبه المسلوقة ويمنحه بهاء الإيمان. وفيها أيضاً يشجع الطلاب بعضهم بعضاً على عمل الطاعات فينهضون جميعاً وتتحفز نفوسهم بحافز الجماعة.

إنَّ واجبات الأخوة لا تقتصر على الجانب المادي، ولا النفسي فحسب، بل تشمل كذلك على الجانب الإيماني.

عن أبي وائل، قال: قام سهل بن حنيف يوم صفين، فقال: (أيها الناس! اتهموا أنفسكم. لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتلاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى».

قال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنْيَةَ في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً».

قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب! إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول

الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوفِّتُح هو؟ قال: «نعم». فطابت نفسه ورجع^(١).

الركيزة الثانية: طعم الإيمان:

للإيمان طعم وحلاوة لا يذوقها إلا من حافظ على مقتضيات إيمانه، وثبت عند ورود الشهوات والشبهات. قال ابن رجب - رحمه الله -: (الإيمان له حلاوة وطعم يذاق بالقلوب، كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم، فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقوتها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقوتها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته؛ فإذا سقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السقم عليه، فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان من أسقامه وآفاته، فإذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ، ومتى مرض وسقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي. ومن هنا قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٢)؛ لأنه لو كمل إيمانه لوجد حلاوة الإيمان فاستغنى بها عن استحلاء

(١) أخرجه البخاري ٤١٥/٢ كتاب الجزية والموادعة، ح ٣١٨٢. ومسلم (واللفظ له) ١٤١٢/٣ كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١/٢ كتاب المظالم والغصب، باب النهي بغير إذن صاحبه ح ٢٤٧٥.

المعاصي. سئل وهيب بن الورد: هل يجد طعم الإيمان من يعصي الله؟ قال: لا، ولا من همَّ بالمعصية. وقال ذو النون: كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب^(١).

وطعم الإيمان وحلاوته أخبر بهما النبي ﷺ، عن العباس بن عبد المطلب ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»^(٢).

وعن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار»^(٣).

وبتذوق الطلاب طعم الإيمان في المحاضن التربوية تكون أرواحهم قد تزودت بغذائها اللذيذ، ونفوسهم قد اطمأنت وارتاحت وهدأت، وتكون حاجاتهم الروحية قد أُشبعَت بحب الله وحب محبوبات الله تعالى.

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ٥١.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٦٢ كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً.. ح ٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٢٢ كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ح ١٦.

إذن.. سيجد هؤلاء الطلاب بُغيتهم من الطمأنينة والسكينة في هذه المحاضن التربوية.

وحين تكون محاضننا التربوية بهذا القدر من تلبية الاحتياجات وتنمية الإيمان، فإنها ستكون جاذبة قادرة على استقطاب الطلاب واستبقائهم.

ولكي يكون المحضن التربوي مليئاً لهذه الحاجة عليه أن يقوم بما يأتي:

أولاً: تقديم المواعظ الرقيقة:

المحضن الذي يحسن انتقاء المواعظ الإيمانية الرقيقة، والتي تخاطب القلب والوجدان والعقل، وتشتمل على كلام الله - تعالى - ورسوله ﷺ، وتذكر بمواقف الآخرة ومشاهدها، في جو مناسب لهذه المواعظ؛ كالتعقيب على المواقف.. المحضن الذي يحسن ذلك يسهم في ترقيق القلب وردع النفس عن ما حرم الله وحفظها إلى ما يرضيه. والطالب - بناء عليه - سيتحرك وفق تأثير هذه المواعظ، وسيكون طعم الإيمان نتيجة حتمية لهذا التسلسل.

لقد وصف حنظلة رضي الله عنه مجالس النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف في حديث سابق؛ حيث قال: (نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا

الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا). فحظظة يقارن بين مجلس النبي ﷺ الذي يبعث على الإيمان ويشجع على الطاعة بالتذكير بالجنة والنار، وبين بيته عند أهله وماله الذي ينسيه مناخ الطاعات، لصالح مجالس النبي ﷺ. وأبو بكر ﷺ يوافق في هذه المقارنة، ثم لا يجدون ملاذاً لحل هذه المشكلة إلا بالذهاب إلى مجلس النبي ﷺ.

هكذا هي المحاضن المؤثرة! قبلة يتوجه إليها الطلاب، ويلوذون بها، ويتشبثون بها؛ لأنّ التذكير بالآخرة فيها أصيل ومتكرر وعميق. تأمل قوارع السور المكية: الهمزة، الزلزلة، العاديات، القارعة، الأعلى، الغاشية، التكوير، الانفطار، الانشقاق. القرآن الكريم مصدر المواعظ المؤثرة، والتي سترك أثرها الإيجابي في نفوس الطلاب، بل الناس عموماً، ولذلك قال الله - تعالى - في ختام سورة ق: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ثانياً: بناء التصورات الإيمانية:

الإيمان مبني على فكرة ومعلومة، والله عز وجل يقول في كتابه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]؛ فبدأ بالعلم قبل العمل، وهذا يعني أنّ العمل بمقتضيات الإيمان وواجباته مبني على العلم به، وفهمه فهماً صحيحاً سليماً من الشوائب والنقصان.

ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بعرض مفاهيم الإيمان وأركانه عرضاً صحيحاً، يبنى عند الطلاب تصورات صائبة؛ أسماء الله وصفاته، واليوم الآخر، والقبر عذابه ونعيمه، والملائكة، والأنبياء والرسل، والرسالات، والقدر، وأركان الإسلام، وحقيقة الدين، ومراتبه، وكيفية تحقيقه في الحياة.. إلى غير ذلك من التصورات الإيمانية التي يجد فيها الطالب الإجابة الشافية على سؤالاته وإشكالاته، والتي تشكل قناعاته الإيمانية الجديدة المبنية على منهج صحيح سليم.

لقد اهتمَّ القرآن الكريم ببناء التصورات المتنوعة، والتي بمجموعها تكون لدى المسلم بناءً فكرياً قوياً عن الإيمان وواجباته ومقتضياته. خذ مثلاً على ذلك سورة فصلت: عرضت في بداياتها خلق السموات والأرض: ﴿قُلْ أَنتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿فصلت: ٩ - ١٢﴾.

ثم عرضت أحوال بعض الأمم المكذبة، وعاقبة كفرها بالله - تعالى - في الحياة الدنيا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ

صَاعِقَةً عَادٍ وَتَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
 كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ
 أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
 بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ
 لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ
 لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى
 فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ
 آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿فصلت: ١٣ - ١٨﴾ .

ثم عرضت مصير المؤمنين بدعوة الرسل ومصير المكذبين بهم
 في اليوم الآخر: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾
 حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
 أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ
 ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي
 ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ
 مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَفَيْضًا لَهُمْ قُرْنَاءَ
 فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا لِلَّذِينَ أُضْلَانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أقدامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلًا مِّنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿[فصلت: ١٩ - ٣٢].

وفي واقع الأمر فإنَّ الانطلاق من القرآن الكريم في بناء التصورات هو أفضل طريقة، بل أصح طريقة.

من المهم أن يدرك الطلاب قيمة النصوص الشرعية، وقيمة أهل العلم في المجتمع، ونحو ذلك من الأمور التي تجعلهم قادرين على تنميط حياتهم بدين الله تعالى.

من زاوية أخرى؛ فإنَّ بناء التصورات الإيمانية في المحاضن التربوية تلبي الاحتياجات الثقافية والعلمية لدى الطلاب، وحين يجد الطلاب مستودعًا يجلبون منه في بناء الأفكار لديهم وتصحيح المفاهيم التي ساهمت وسائل متعددة في تشويهاها وتحريفها؛

فإنهم سيفخرون بمحضن كهذا، وسيتشبثون به، لأنه أحد عوامل الاستقرار النفسي لديهم، أو هكذا يرون.

أيها المربون! قد لا يجد طلابكم في لاحق أعمارهم ما يوضح لهم مفاهيم الإسلام وواجبات الإيمان، وإنَّ عوامل تشويه الإسلام وتحريفه اليوم أكثر من أن تُحصَر، فدونكم هذه النابتة الطيبة فاغرسوا فيها المفاهيم والتصورات المستقيمة، اغرسوها بطريقة علمية منهجية، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وليتمكنوا من الثبات أمام طوفان التشويه والتحريف الذي قد يغرقهم في قادم الزمن إن لم يكن لهم بناء فكري يتحصنون به. وإياكم والاستهانة بما هذا شأنه.

الثالث: حاكمية الوحي:

وأعني بهذه النقطة أن يجعل المربي من القرآن الكريم والسنة النبوية حاكماً على السلوك التربوي، وبمشهدٍ من الطلاب. بمعنى أن يحاكم سلوك الطلاب وفق ما جاء في كتاب الله - تعالى - وسنة نبيه ﷺ، لا على الأعراف التربوية، أو أعراف المحضن التربوي فحسب، ويكون ذلك بطريقة سهلة لا تُنهك ذهن الطالب ولا تُربك عقله ووجدانه.

بمجرد الاستدلال على تقييم سلوكٍ من كتاب الله - تعالى - وسنة نبيه ﷺ نكون حكمنا القرآن الكريم في المحضن التربوي.

وهذا يفيدنا في أربعة جوانب: في جانب التصحيح القويم لسلوكيات الطلاب، وفي جانب غرس مفهوم الحاكمية بشكل بسيط غير معقّد؛ وهذا سيكون له تأثيره العميق والممتد عبر الزمن، وفي جانب الأمان النفسي للالتحاق بهذه المحاضن، وفي الجانب الأخير والمهم أيضاً، وهو أنّ هذه المواقف التي يحكمها القرآن تزيد من إيمان من حضرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦].

سيجد الطلاب في هذا المحضن التربوي بركة الحضور القرآني وحاكميته على الأفعال والسلوك، وسيشعرون أنهم محاطون بالناية الإلهية والتربية القرآنية المثالية. إنه محضن تربوي يعصمهم من الزلل، ويربيهم على التمسك بالقرآن الكريم حقيقة لا ادعاء.

لقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يتأولون القرآن الكريم على أحداثهم ووقائع حياتهم إلى حدّ بعيد. قال الربيع بن صالح: (لما أخذ سعيد بن جبير - رضي الله عنه - بكيت، فقال: ما بيكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه. قال: فلا تبك، فإنه كان في علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] الآية)^(١).

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٦٧.

إنَّ الاستهداء بالقرآن هو غاية الرشاد، ليس على مستوى الفتوى فحسب، بل على مستوى معالجة المواقف، وتفسير الظواهر والأحداث. عن ابن عباس قال: (لأحدثنكم حديثاً: إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان، قلتُ لعليّ: اعتزل هذا الأمر، فوالله لو كنت في جُحْرٍ لأتاك الناس حتى يبائعوك. فعصاني. وأيم الله ليتأمّرَنَّ عليه معاوية، ذلك بأن الله يقول: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] (١).

إنَّ محاضن التربية عليها أن تبرز للطلاب حاكمية القرآن الكريم، إبرازاً حقيقياً جذاباً يجعلهم يشعرون بالحياة مع القرآن، تلك الحياة اللذيذة الهانئة.

الركيزة الثالثة: تحرير الإنسان:

وهذه الركيزة أعني بها أن يتحرر الطالب - من خلال المحضن التربوي - من كل القيود العقلية والوجدانية التي تصادم الشريعة الإسلامية أو لا تتفق معها. إنها تعني - في صياغة أخرى - صَهْرَ عقل الطالب ووجدانه في بوتقة التوحيد المحض، حتى يُسلم عقله ووجدانه لله رب العالمين.

عن عبد الله بن هشام، قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله! لأنت أحب إليّ من كل

(١) تاريخ الإسلام ٢/٢٦٧.

شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»^(١).

قد يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة (تحرير) أنها تعني فك الارتباط عن شيء خارجي. نعم، هي كذلك حسب سياقها، لكنها في هذا السياق تعني التحرر من قيود الذات العقلية والوجدانية؛ إضافة إلى المجتمع والأسرة وكل محيط بالإنسان.

وتحرير الإنسان عبر المحاضن التربوية يتم من خلال ثلاث نقاط:

الأولى: الموازنة بين الفردية والجماعية:

من الضروري أن يوفر المحضن التربوي لطلابه مناخاً فردياً ومناخاً جماعياً.

أما المناخ الجماعي فهو الذي يتأطر فيه الطالب بحدود الجماعة، ويتعلم فيه أدبياتها من الطاعة والنظام والضببط، وتقديم المصالح الكبرى على الشخصية، ويتربى فيه على أخلاقيات الأخوة من الإيثار والتعاون، وخدمة الآخرين، وإحسان الظن بهم، والذب عنهم، ونحوها.

(١) أخرجه البخاري ٢١٦/٤ كتاب الأيمان والندور، باب كيف كان يمين النبي ﷺ؟ ح ٦٦٣٢.

وفي المناخ الجماعي ترسخ لدى الطالب أهمية الجماعة بمفهومها الكبير، كما ترسخ لديه خطورة الانعزال عنها؛ حيث الابتعاد إلى حدٍّ ما عن العصمة والصواب.

أما المناخ الفردي فهو الذي يحمي الطالب من الذوبان، ويُبقي على وهجه وحياته وبهائه؛ حيث تظهر بصمته الشخصية، ويُستثمر تفرده، وتبرز طاقاته الخاصة.

والمناخ الفردي هو الشيء الذي يعد من أكثر الأسباب تأثيرًا في قوة المحضن التربوي، فإنَّ قوة المحضن التربوي تكمن في الشراء الحركي والإنتاجي الذي يحتضنه.

المحضن المؤثر هو الذي يجمع للطالب هذين المناخين، فالطالب - في هذا المحضن - يتربى على الجماعية وأدبياتها وأخلاقياتها، وعلى الفردية والثقة بالنفس والعمل وفق مسار النمط الشخصي. بهذا سيكون المحضن التربوي جاذبًا للطلاب ومريحًا لهم؛ لأنهم يجدون فيه ذواتهم ولا يفقدونها بسبب فرط الجماعية. المناخ الجماعي يُصقل شخصية الطالب ويهدبها، والمناخ الفردي يُنْعش هذه الشخصية ويقوم بإثراء المحضن بالإبداعات المتنوعة.

وإذا وجد الطالب ذاته في الجماعية كما يجدها في الفردية، فسيجد نفسه منجذبة نحو المحضن، متأثرة به.

من الواضح جدًا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا على هذا الحال، وكان التفرد الشخصي لكل واحد منهم أمرًا معترفًا به عند نبينا ﷺ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا؛ وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(١).

وحين تطالع سيرهم فإنك تجدهم مشارب شتى وشخصيات متنوعة، فلم يكونوا على هيئة واحدة، ولا على اهتمام واحد، ولا على عمل واحد. كانوا ﷺ يتنوعون في الأعمال الصالحة التي تقرّبهم من الله تعالى؛ كما يتنوعون في طرق معاشهم. وكان النبي ﷺ يدعم هذا التنوع بتوجيهاته المتنوعة التي غالبًا ما كانت تناسب حال السائل أو المستفيد من هذا التوجيه. ومن توجيهاته ﷺ الجامعة قوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢).

يُشكل على بعض المعلمين والمربين مسألة التفرد والنزعة الاستقلالية. ذلك أن البعض منهم يتوهم في كثرة إirادات الطالب وكثرة استيضاحاته ومطالبته بالإقناع وعرضه لوجهة نظره، بل

(١) الترمذي ٥/٦٦٥ كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت.... ح ٣٧٩١.

(٢) مسلم ٤/٢٠٤٠ كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.... ح ٢٦٤٧.

وتبرمه أحياناً من بعض القرارات وامتعاضه من بعض البرامج، ونحو ذلك من التصرفات المزعجة للمعلمين والمربين.. البعض يتوهم أنها تشغيب وتمرّد ورفض للجماعية، وبالتالي قد يتم تقييم الطالب بالسالب في هذه الحالة.

في حقيقة الأمر إنَّ هذه التصرفات مزعجة، حقاً! لكن لا بد من وجودها في المحاضن التربوية؛ لاختلاف أنماط شخصيات الطلاب، لكنها لا تدل بمفردها على تقييم بالحسن أو السوء، وإنما هي تنبئ عن مستوى معين من نمط شخصية الطالب، والمربي الحاذق هو الذي يستطيع أن يتواصل بشكل جيد مع هذه الأنماط، ويستوعب انفعالاتها.

غالبًا ما تكون هذه الشخصيات قوية، لذلك هي تُظهر ما لديها في مكنونها دون مجاملة، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزوة الحديبية من إirاده على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي سبق ذكره. والمحضن الذي يضمُّ بين جنباته هذا النوع من الشخصيات محضن قوي لأن أفراده أقوياء، والمربي في هذه الحال عليه أن يستثمر هذه القوة وأن يوجهها، بل ويجربها، لا أن يكتبها ويدعس عليها ويذيقها في المحضن.

إنَّ تدوير هذه الشخصيات قتل للذات وطمس للمواهب، إنه نزعٌ لروح المبادرات وتدمير للمسار النقدي، وهو غرس للعبودية

المقيدة، وللتبعية المهينة، وتعويد للذل والسير في ذيل القافلة. إنه يعني تفرغ المحضن من أحد مصادر قوته، وطرده للأقوياء، فلا يبقى إلا الضعفاء الذين لا يعول عليهم في بناء مستقبل الأمة.

لم يعنّف النبي ﷺ عمر بن الخطاب يوم الحديبية حين أبدى رأيه في الصلح، ووصف حالهم بأنهم يعطون الدنية في دينهم. هكذا كانت وجهة نظر عمر بن الخطاب ﷺ، لكن ذلك المرابي الحاذق ﷺ تعامل معه بما يقتضيه الموقف التربوي، وأجابه بأنه رسول الله، وأنّ الله لن يضيعه، ولما نزلت سورة الفتح دعاه النبي ﷺ وتلا عليه الآيات. العجيب أنّ هذا الموقف لم يجعل النبي ﷺ يؤخّر عمر عن منزلته في قلبه، ولا منزلته في الجماعة، لأنه يعلم أنّ هذه الشخصية قوية، وأنّها بهذا النمط مع ما حباها الله من إيمان سينفع الله بها الأمة. هذا النوع من الشخصيات بأمرّ الحاجة إلى أن يقتنع فقط وأنّ يتحاور معه، ولا يرضى - بأي حال - تهميشه أو عدم الإجابة عن استيضاحاته وأسئلته أو عدم التعامل معه بجدية.

المرابي الحاذق لا يرفض هذه الاعتراضات الواردة عليه، ولو كانت كبيرة، بل عليه أن يعدّها ضرباً من القوة الواجب استثماره وتربيته.

الثانية: تحرير العقل وتنميته:

العادات والأعراف الاجتماعية، ونمط الحياة السائد، والضحُّ الإعلامي الهائل وطرائق التعليم ومناهجه لها تأثير عجيب في تشكيل عقلية الإنسان، وطريقة تفكيره، ومن البديهي أن يكون العقل أسيراً لهذه الأشياء.

وأحد أولويات التربية الإسلامية تحرير العقل البشري من قيود هذه المؤثرات، لينطلق في فضاء التفكير الواسع، فإنَّ العقل البشري له قيمته ومكانته، وحين تُلغى هذه القيمة؛ فإنه سرعان ما ينحرف عن المسار الصحيح، أو ينحرف مع كل تيار لامع.

والقرآن الكريم - منذ البداية - اهتمَّ بتنمية العقل في المسار الصحيح، واهتم كذلك بتحريره من أسر المؤثرات الخارجية. فأول كلمة من أول سورة نزلت هي: اقرأ. وأول مخلوقٍ أقسم الله - تعالى - به في القرآن هو القلم. إنها النقلة الهائلة في تنمية العقل.

تأمل سورة الأنعام وما فيها من حوار عقلي يصل بالمخاطب إلى الرضوخ للحقيقة لا للأوهام والخرافات: ﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْتَ خُذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وفي سورة البقرة ذمَّ الله - تعالى - أولئك الذين تركوا أمر الله - تعالى، وهو أحكم الحاكمين - ؛ لأنهم وجدوا آباءهم يفعلون خلاف ذلك، فقال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. قال الطبري - رحمه الله -: (يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم؛ فتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مصييون حقاً، ولا مدركون رشداً؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه - فيما هو به جاهل - إلا مَنْ لا عقل له ولا تمييز)^(١).

وفي كلام نفيس لمحمد رشيد رضا، قال في (الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة) ما نصّه: (القاعدة الثالثة عشرة: بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء؛ لأنه جهلٌ وعصبية جاهلية، والشواهد عليه في هذه السورة وغيرها عديدة، أظهرها هنا ما حكاه الله - تعالى - لنا عن تبرؤ المتبوعين من الأتباع يوم القيامة في الآيتين [١٦٦ و ١٦٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

(١) تفسير الطبري ٤٣/٣.

وإن في تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأنَّ الله - تعالى - لا يقبله، ولا يعذر صاحبه في الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في الدين، وهو لا يقتضي الاجتهاد المطلق في جميع مسائل التشريع، أعني الاستنباط العام بوضع الأحكام لكل ما يحتاج إليه الأفراد والحكام. وإنَّ في إطلاق مقلدة المصنِّفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين في أمور الدين، وتحريم الأخذ بالدليل فيه - لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع - لأفتياً على دين الله، ونسخاً لكتاب الله، وشرعاً لم يأذن به الله، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل، وهذا منتهى الإفساد للفطرة والعقل، وهو أقطع المدى لأوصال الإسلام، وأفعل المعاول في هدم قواعد الإيمان، وعلة العلل لانتشار البدع التي ذهبت بهداية الدين، واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين^(١).

أما سيرة النبي ﷺ فهي واضحة الاحتفاء - لمن سبر - بتسمية العقل، وتحريره من القيود الضاغطة عليه؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ جاءه أعرابي، فقال: يا رسول الله! إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسوداً! فقال: «هل لك من إبل؟». قال: نعم.

(١) تفسير المنار ١ / ٩٥.

قال: «ما ألوانها؟». قال: حمر. قال: «هل فيها من أورك؟». قال: نعم. قال: «فأنى كان ذلك؟». قال: أراه عرق نزعته. قال: «فلعلَّ ابنك هذا نزع عرق»^(١).

لقد كان النبي ﷺ يربي الصحابة - من خلال مواقف عديدة - على عدم الاستسلام للتصورات الذهنية السائدة، وحوكمتها بالتقنيات العقلية، كالقياس مثلاً.

التخلص من القيود الضاغطة على العقل - أيًا كانت هذه القيود: ثقافية، أو اجتماعية، أو إعلامية - طريق معبّد يوصل إلى الهداية. وإن أولئك الذين كانت لديهم حرية عقلية حقيقية، وليست ادعاء، قادتهم عقولهم إلى أنوار الوحي، واستسلمت لسلطان الشريعة. بل لعلهم - إذا وفقهم الله - تعالى - يكونون أصحاب مبادرات نافعة.

قال الطفيل بن عمرو: (كنت رجلاً شاعراً، سيداً في قومي، فقدمت مكة، فمشيتُ إلى رجالات قريش، فقالوا: إنك امرؤ شاعر، سيد، وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل، فيصيبك ببعض حديثه، فإنما حديثه كالسحر، فاحذره أن يُدخَلَ عليك وعلى قومك ما أدخَلَ علينا، فإنه فرّق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وابنه.

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٢٦٢ كتاب الحدود، باب ما جاء في التعريض ح ٦٨٤٧.

فوالله ما زالوا يحدثوني شأنه، وينهونني أن أسمع منه، حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادُّ أذني. قال: فعمدت إلى أذني، فحشوتها كرسفًا، ثم غدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله ﷺ قائمًا في المسجد، فقمتم قريبًا منه، وأبى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله. فقلت في نفسي: والله إن هذا للعجز، وإني امرؤُ ثبت، ما تخفى عليَّ الأمورُ حسنُها وقبيحُها، والله لأتسمعَنَّ منه، فإن كان أمره رشدًا أخذتُ منه، وإلا اجتنبته. فنزعتُ الكرسفة، فلم أسمع قط كلامًا أحسنَ من كلام يتكلم به. فقلت: يا سبحان الله! ما سمعت كالיום لفظًا أحسن ولا أجمل منه.

فلما انصرف تبعته، فدخلت معه بيته، فقلت: يا محمد! إن قومك جاءوني، فقالوا لي: كذا وكذا، فأخبرته بما قالوا، وقد أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول، وقد وقع في نفسي أنه حق، فاعرض عليَّ دينك. فعرض عليَّ الإسلام، فأسلمت، ثم قلت: إني أرجع إلى دوس، وأنا فيهم مطاع، وأدعوهم إلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، فادع الله أن يجعل لي آية. قال: «اللهم اجعل له آية تعينه».

فخرجتُ حتى أشرفتُ على ثنية قومي، وأبي هناك شيخ كبير، وامرأتي وولدي، فلما علوت الثنية، وضع الله بين عيني نورًا كالشهاب يترأاه الحاضر في ظلمة الليل، وأنا منهبط من الثنية. فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة لفراق

دينهم. فتحول، فوقع في رأس سوطي، فلقد رأيتني أسير على بعيري إليهم، وإنه على رأس سوطي كأنه قنديل معلق.

قال: فأتاني أبي، فقلت: إليك عني، فلست منك، ولست مني. قال: وما ذاك؟ قلت: إني أسلمت، واتبعت دين محمد. فقال: أي بني! ديني دينك، وكذلك أُمي، فأسلما. ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام، فأبْتُ عليّ، وتعاصت. ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ فقلت: غلب على دوس الزنى والربا، فادع عليهم. فقال: «اللهم اهدِ دوسًا».

ثم رجعت إليهم، وهاجر رسول الله ﷺ فأقمت من ظهرانيهم أدعوهم إلى الإسلام، حتى استجاب منهم من استجاب، وسبقني بدر وأحد والخندق.

ثم قدمت بثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس، فكنت مع النبي ﷺ حتى فتح مكة. فقلت: يا رسول الله! ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه. قال: «أجل، فاخرج إليه». فأتيتُ، فجعلت أوقد عليه النار...^(١).

هنا استوقف القارئ الكريم: ماذا لو أسلم الطفيل بن عمرو عقله إلى الضغوطات المؤثرة والقوية؟ هل كان سيُسلم؟ وهل كانت قبيلته ستُسلم؟

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٦.

لقد تحوّل إلى داعية مؤثر، ومحارب للشرك، وصاحب مبادرات.

أيها المربون!

ألَسنا بحاجة إلى مثل هذه العقول الراشدة، التي تستطيع بنفسها أن تميّز بين الخير والشر، والصواب والخطأ؟ ألا يحسن بنا أن نجهد أنفسنا في تحقيق تنمية عقلية لطلاب محاضننا، يستطيعون بها نقد الآراء الواردة والأفكار الوافدة؟ والتي قد ترد عليهم في قادم الأيام، وهم خارج إطار المحضن.

بلى! والله.

وحين يجد الطالب في المحضن التربوي بيئة مشجعة على الرؤية النقدية والتفكير التحليلي، فإنه سيصبح قادراً على تفسير الظواهر والأحداث والمواقف وتحليلها، وستتسع لديه المدارك وستتمو ثقافته، وهذا في حد ذاته مصدر إشباع للحاجة الثقافية لديه.

الثالثة: بناء الشخصية:

كل إنسان له بصمة خاصة به، قدّر الله أن تتشكل من عنصرين مهمين: البيئة والصفات الوراثية. بيئة الإنسان: محيطه الذي تربي فيه ونشأ فيه، الأسرة والحارة والمدرسة. والصفات الوراثية التي تسربت إليه عن طريق والديه، والتي ربما حملت إليه صفات لا

تُعرف فيهما، وإنما تعرف في أصولهما.

من هذين العنصرين تتشكل الشخصيات، ويظهر كل إنسان له نمط خاص به وصبغة تميزه عن غيره.

المحضن الفعّال والمؤثر هو الذي يعترف بهذه الشخصيات على اختلاف أنماطها وخصائصها، ثم هو لا يكتفي بأن يعترف بها، بل يقوم ببنائها وتشييدها بطريقة تجعل منه شخصية متكاملة.

وفي هذه الحال، أعني عندما يقوم المحضن بالاعتناء بشخصيات الطلاب على اختلاف أنماطها، فإنهم سينجذبون إليه وسيجدون فيه ذواتهم وستشبع لديهم بعض الحاجات النفسية، كالحاجة إلى القبول والتقدير. وهكذا يقوم المحضن التربوي بصقل الناس وتنميتهم وجعلهم أفاضاً قادرين على تحمّل المسؤوليات الجسام، صالحين نافعين لأمتهم.

قصة الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه فيها دلالة على قبول الأشخاص كما هم، وتأثير ذلك على ماجريات حياتهم.

محاولة استنساخ الصالحين ونمذجة المرين غير صالحة في المحاضن التربوية، وتولّد الوهن وتقديس الأشخاص، وتصنع الوجوه المنافقة والكيانات الذليلة. وقد سبق الحديث عنها في معالم التربية.

المبحث السادس: العودة إلى التربية المكية

يتحدث الأصوليون والمفسرون عن الفروق بين العهد المكي والعهد المدني في طبيعة الشرائع والأحكام والمعالجات القرآنية، وهذا الحديث ينبغي أن يُطَّلع عليه المرءون لأهميته ولدلالاته التربوية العميقة جدًّا، وفي الشريعة جاء النسخ كمسألة من المسائل التي تركت بصمتها على الأحكام عبر العصور والأزمان.

ولا زلت أتذكر شيخنا الدكتور عابد السفنياني - حفظه الله - حين كان يتناول بعض المسائل التي جرى عليها قلم النسخ؛ مثل آيات الجهاد وآيات الخمر، كان يعقِّب عليها بقوله: (وفي هذا دلالة تربوية!).

ليست الفروق محصورة في جوانب علمية، بل تشمل الجوانب التربوية، أي أن التربية في العهد المكي تختلف بدرجة ما عن التربية في العهد المدني، وهذا الاختلاف بحدِّ ذاته له دلالاته التربوية.

في واقع الأمر أن العمل التربوي اليوم، رغم ما ناله من تطوير للمهارات العملية؛ إلا أنه بحاجة إلى صياغة فلسفية ترسم منطلقاته، وينبغي للمربين أن يكونوا أكثر عمقًا في فهم العمل الذي يقومون به، لا من جانب المهارات العملية فحسب، وإنما من جانب الرؤية وفلسفة العمل.

على المربين أن يجيبوا عن أسئلةٍ تطرحها ذواتهم: ماذا نعمل؟ ما هو هدف العمل التربوي اليوم؟ ما هي وظيفة التربية؟ ما الذي نريده من التربية؟

أجد كثيرًا من إشكالات التربية وتساؤلات المربين التي تنمُّ عن حيرة ما، ناتجة عن ضبابية الرؤية التربوية، وقصور المسار الفلسفي لديهم في العمل التربوي.

ولذلك أودُّ التنبيه إلى خطورة هذا الأمر، فإنَّ أيَّ سلوكٍ إنما ينبع من فكرة، وكل جهد يقبع خلفه دافع وإرادة، فما هي فكرة المربين عن التربية التي يمارسونها؟ وما هي دوافعهم وإراداتهم؟

على أية حال.. ليس المربون على فكرة واحدة ولا إرادة واحدة ولا دافع واحد. وجزء كبير من الأسباب لهذه النتيجة يرجع إلى القصور الذي ألمحت إليه. وهذه المسألة سبق الحديث عنها^(١)، وإنما ذكرتها هنا استطرادًا للحاجة إليها.

بعد هذا التقديم نعود إلى محور حديثنا..

من الأسئلة الفكرية التي يحسن بالمؤسسات التربوية فهمها، وسينعكس أثرها على إدارة العمل التربوي، وعلى سلوك المربين وأدائهم: ألا يمكن للمربين أن يجعلوا من التربية في العهد المكي نموذجًا تقاس عليه تربيتنا المعاصرة في محاضننا التربوية؟

للإجابة على هذا السؤال.. دعونا أولاً نستجلي واقع التربية في العهد المكي إذ يتربى فيه أصحاب النبي ﷺ.

(١) في مبحث: مع المحاضن التربوية.

بنظرة سريعة على العهد المكي الذي تربى فيه أصحاب النبي ﷺ المكيون، فإننا سنجد مجتمعا منحرفا، وسنجد مناخه متلوثا بالقاذورات، فقد كان الشرك بالله هو الأمر السائد، وتوجد بجوار كعبة الله المشرفة العشرات من الأحجار المنحوتة التي يعبدونها من دون الله.

لقد كان الزنا يسيرا منتشرا، أخبرتنا أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن شيء من ذلك، فعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته: (أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم

وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحدهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، ودُعي ابنه، لا يمتنع من ذلك. فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: (كان أهل الجاهلية يحرّمون ما ظهر من الزنا، ويستحلّون ما خفي، يقولون: أما ما ظهر منه فهو لؤم، وأما ما خفي فلا بأس بذلك. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]^(٢). وقال السدي: (أما ما ظهر منها فزواني الحوانيت، وأما ما بطن فما خفي)^(٣).

وفي حديث مرثد بن أبي مرثد الغنوي ما يدل على شيء من ذلك؛ فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: (كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي

(١) أخرجه البخاري ٣/٣٦٩ كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، ح ٥١٢٧.

(٢) تفسير الطبري ٦/٦٠٣.

(٣) تفسير الطبري ٩/٦٥٩.

بهم المدينة. وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها: عناق وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجانب الحائط فلما انتهت إليّ عرفت، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمّ فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناق حرم الله الزنا. قالت: يا أهل الخيام! هذا الرجل يحمل أسراءكم. قال: فتبعتني ثمانية وسلكت الخدمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فظل بولهم على رأسي وعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أكبله فجعلت أحمله ويعينني حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ. فلم يردّ عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك. فلا تنكحها»^(١).

مجمل النصوص تدل على هبوط في المستوى الأخلاقي لدى المجتمع الجاهلي، وهذا الهبوط يتيح لكل من يريد أن يقارف شيئاً

(١) أخرجه الترمذي ٣٢٨/٥ كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النور، ح ٣١٧٧.

من القاذورات فعل ما تشتهيهِ نفسه؛ مع الحرص على الحفاظ على سمعته أمام الناس، وبهذا يستطيع مقارفة الرذائل دون أن يطاله لوم أو عقاب.

بل بلغت قريش في انهماكها في القاذورات أن نسبت بعض مظاهر الفاحشة إلى الدين، وهي القبيلة التي تفاخر القبائل بأنها وريثة دين إبراهيم - عليه السلام -، حكى الله - تعالى - عنهم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

كما كانت المعاملات التجارية منحرفة في بعض مساراتها. وكان الربا الذي أنهك الفقراء موجوداً ومعروفاً، ولذلك لما خطب النبي ﷺ خطبة الوداع وتحدث عن حرمة الربا أسقط ربا عمه العباس رضي الله عنه (١).

وكانت الطبقة والتحزب للقبيلة والتعصب لها أمراً طبيعياً، ولو على حساب القيم الفاضلة كالعدل ونصرة المظلوم. وكانت بعض المظاهر السخيفة تعتلي سُلَّم الحياة اليومية؛ كالاستقسام بالأرلام، وشرب الخمر في المحافل والبيوت، وكغناء القيان والجواري.

(١) أخرجه الترمذي ٥/ ٢٧٣ كتاب تفسير القرآن، باب: ومن تفسير سورة التوبة، ح ٣٠٨٧.

في مناخ متلوث كهذا؛ كان يتربى جهابذة أصحاب رسول الله ﷺ من الشباب كابن مسعود وبلال بن رباح، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، وغيرهم من الثلة التي تُعرف بـ(المهاجرين).

على الجانب الآخر، فإنَّ مجتمع الشباب اليوم - وإن كان يحمل واجهة إسلامية - إلا أنَّ الثقافة الغربية حاضرة بقوة، فالشباب يقضي جزءاً كبيراً من وقته في الألعاب الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي؛ وهما غريباً المنشأ، فلا يسلم - في أقل الأحوال - من التعرض لقاذورات الغرب وإباحيته، ولو كان ذلك يسيراً جداً.

والشباب اليوم - بفعل الانفتاح - يتعرض للعديد من الشبهات التي تشوُّش عليه نسق أفكاره عن الإسلام الصحيح، ومذهب أهل السنة والجماعة. وموجة الإلحاد والشكوك اليوم تمثل خطراً كبيراً عليه.

والشباب اليوم يسهل عليه اللحاق بالغرب ومواطنتهم ومساكنتهم، والهروب من ديار المسلمين.

والشباب اليوم يتعرض لهجمة شرسة على تدينه وأخلاقه وأصالته.. ليست بالبعيدة عن تلك التي تعرض لها أصحاب محمد ﷺ في مكة.

إنَّ الظروف التي يعيشها شباب اليوم من التعرض لفتن الشهوات والشبهات أقرب ما تكون شبهاً بالعهد المكي منها.

وعليه؛ فإن الحاجة إلى منهجية وطرائق التربية في العهد المكي في هذا الوقت لهي من الواضح بمكان، وإنَّ على المؤسسات التربوية اليوم والقائمين على محاضن البنين والبنات أن يتلمسوا معالم التربية وتفاصيلها في تلك الحقبة المباركة.

لقد أعان الله - تعالى - أصحاب محمد ﷺ في مكة على تجاوز عقبات الإيمان، وتخطي موجة الشبهات، والصبر على الابتلاءات، في جوِّ تربوي عميق. واليوم شبابنا بحاجة إلى مثل تلك التربية ليجتازوا عقبات الإيمان، وليصبروا على فتنة الشهوات والشبهات، ويقاوموا مدَّ التفلت الأخلاقي الطاغي.

ويأتي هنا سؤال مهم: ما هي عناصر التربية في العهد المكي؟ والتي بفضلها - بعد توفيق الله تعالى - ثبت الصحابة على الإيمان، بل ونما الإيمان في قلوبهم نموًّا هائلًا، حتى أصبح مثل الجبال الراسيات.. على ماذا كانوا يتربون؟

سبق وأن تحدثت عن ركائز التربية المكية في غير هذا الموطن، لكنني سأعيد صياغة هذه المسألة مرة أخرى هنا لتكون أكثر وضوحًا^(١):

(١) في كتابي: مثنان، التربية القرآنية في العهد المكي ص ٨٠.

١ - تقوية الإرادة القلبية:

كانت التربية الإيمانية في العهد المكي مَعِينَةً بالدرجة الأولى والعظمى بالقلب، وتنمية الإرادة فيه، وغرس معاني حب الله - تعالى - والخوف ومنه ورجاءه فيه.

لقد كانت المعالجات القرآنية المكية تتعامل مع القلب بشكل واضح وكبير. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ [الأنعام: ١ - ٥]. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ

اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغْبِرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ٣٢ - ٤١]﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

﴿١٠١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿﴾ [الأنعام: ٩٥ - ١٠٤]

هذه بعض الآيات المكية التي تعرّف بالله تعالى، تعريفًا سهلاً ومناسبًا للواقع الذي يعيشه الناس آنذاك. وهي كذلك تثبت القلب وتواسيه وتحفزه على تنمية الإيمان فيه. وفي سورٍ أخرى أفاضت الآيات في الحديث عن قصص المؤمنين والمرسلين والمكذبين من الأقوام السالفة.

لقد كان من الواضح بمكان - في التربية الإيمانية بمكة - الاهتمام بتقوية القلب وتثبيته، ولم تكن ثمة تفاصيل للشريعة إلا قليلاً. فمسألة القلب وتوحيد الله - تعالى - وصدق التوجه إليه هي أكبر مسألة إيمانية، وهي أصل المسائل، وطليعة الأحكام، وعليها مدار النجاة والفلاح في الآخرة. انظر في سورة الأنعام والزمر، وغيرهما من السور المكية.

والتربية الإيمانية هنا ليست مسألة وجدانية فقط، بل هي تربية تملأ القلب بمعاني الإيمان، فيقوم هو بدوره السيادي على الجوارح فيجعلها خاضعة لله تعالى، لا تتحرك إلا بما يرضي الله

تعالى، ويجعلها تنطلق في سلوك الطاعات كما يجعلها تحجم عن ارتكاب المحرمات.

التربية الإيمانية في مكة اعتمدت على تقوية القلب، حتى أصبح القلب حارساً للتوحيد، منتجاً للسلوكيات الإيمانية، وليس العكس، أعني ليست التربية الإيمانية في مكة تعتمد على إصلاح السلوكيات فحسب. ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ٩ - ١٣] قال السعدي - رحمه الله -: (فأما المنتفعون، فقد ذكّروهم بقوله: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ الله تعالى، فإن خشية الله - تعالى - وعلمه بأن سيجازيه على أعماله توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي والسعي في الخيرات)^(١).

جاء الأمر الرباني في العهد المكي بفرض قيام الليل على النبي ﷺ وأصحابه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٦]. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: (إن الله - عز وجل - افترض قيام الليل في أول هذه السورة. فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً. وأمسك الله خاتمها اثني عشر شهراً في

(١) تفسير السعدي ٤/ ١٩٦٠.

السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(١).

إنك تتحدث عن سنة كاملة من ثلاث عشرة سنة؛ كان قيام الليل فيها فرضاً واجباً!

إنه أمرٌ مهمٌ للغاية في تربية الصحابة على الإيمان وتثبيتهم عليه. ولله حكمة جليظة في ذلك، أبانه في كتابه حيث قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي إن هذا القرآن بما فيه: ثقيلٌ في نزوله، ثقيلٌ في العمل به^(٢)، قال الحسن: (إنَّ الرجلَ ليهدُّ السورة، ولكن العمل بها ثقيل)، وقال قتادة: (ثَقِيلٌ وَالله فرائضه وحدوده)، وقال مقاتل: (لما فيه من الأمر والنهي والحدود)^(٣).

فاحتاج المؤمن إلى ما يعينه على القيام بواجبات الإيمان؛ فوجه ربنا - سبحانه - إلى قيام الليل؛ ذلك أن قيام الليل بالصلاة والقرآن أكثر مواطاة بين القلب واللسان^(٤) فينتفع المصلي بذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ قال قتادة: (أثبت للخير وأحفظ للقاءة)^(٥).

(١) مسلم ٥١٣/١ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، ح (٧٤٦).
 (٢) تفسير ابن كثير ٨/٢٥١.
 (٣) تفسير البغوي ٤/٤٩١.
 (٤) تفسير ابن كثير ٨/٢٥٢.
 (٥) تفسير البغوي ٤/٤٩٣.

وكما أنَّ قيام الليل ينهى عن الإثم ويعين على القيام بواجبات الإيمان؛ فهو أيضاً يربي المؤمن على إخلاص العمل لله، والتجرد من حظوظ الدنيا والرغبة فيما عند الله ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، فهو تربية على العمل في الخفاء، والعمل في الخفاء من أصعب الأمور؛ إذ لا أحد يراك فيشني عليك، أو يشجعك، أو يجلُّك ويعظمك، ولا مجموعة تقوم بينها فتزاد نشاطاً بوجودك بينها، أو لربما تفتعل ذلك خجلاً منها، فضلاً عن وجود فرصة للرياء والسمعة، إنَّ ذلك يربي عزائم القلب وينمِّي حاسة التغلب على المراد النفس وهواها.

لأجل ذلك كله فرض الله على تلك الثلثة المؤمنة ﷺ قيام الليل سنة كاملة حتى انتفخت أقدامهم، ليكون بناؤهم الإيماني بناء متيناً صلباً متماسكاً، لا تزعزعه الأهواء ولا الفتن ولا الرزايا ولا الشهوات، وتخرِّج في مدرسة الليل الخاشع أعمدة الدعوة الإسلامية وقيادات الجهاد وحاملو رايات الفتح.

لقد نسخ الله - تعالى - فرض قيام الليل، لكننا نتعلم من هذا الحكم المؤقت أهمية عبادة السر في التربية الإسلامية؛ لما لها من تأثير على تثبيت الإيمان في القلب وتنميته وتنمية الإرادة في قلب المتربي.

لذا.. فإنه بإمكاننا - في مقرراتنا التربوية - خفض نصاب نوافل العبادات التي نستهدف بها تربية الشباب، لصالح عبادات سرّ قليلة نسعى في غرسها في نفس الشاب، لتقوم هي بتنمية وتثبيت الإيمان في قلبه، على سبيل الاقتراح، ويحسن مناقشة هذا الأمر في التخطيط التربوي.

المسّ في العبادات المكية ارتباطها الوثيق بأعمال القلوب، بمعنى أنّ هذه العبادات - وإن كانت عمل جوارح - إلا أنّها تساهم بشكل عميق في إصلاح القلب وزكاء النفس ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

ومن الأمور التي يحسن التنبيه إليها أنّ التربية المكية طالت الأنصار الذين آمنوا واتبعوا النبي ﷺ قبل الهجرة، على يد الصحابي الجليل، صاحب المهمات الدقيقة، مصعب بن عمير رضي الله عنه. نبهت إلى ذلك لأقول: إنّ المهاجرين والأنصار تعرّضوا لما يفتن القلوب ويزحزح الإيمان من جوفها، لولا فضل الله - تعالى - عليهم، ثم قوة الإرادة القلبية التي غرسها التربية المكية فيهم. قال عبد القاهر البغدادي: (أجمع أهل السنة على أنّ الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ من كندة وحنيفة وفزارة وبني أسد وبني قشير وبني بكر ابن وائل لم يكونوا من الأنصار ولا من المهاجرين قبل فتح مكة)^(١).

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٥٣.

والعجيب في الصياغة الإيمانية أنها جعلت المِحنَ والخطوب أحد موارد الإيمان! ومنها يزداد أهل الإيمان إيماناً؛ فعن خباب بن الأرت، قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل في من قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١)).

وبعد أن صلبت إراداتهم، وقويت قلوبهم نزلت تفاصيل الشريعة ودقائق الأحكام في المدينة، فما كان من أصحاب تلك القلوب إلا أن قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول

(١) أخرجه البخاري ٥٣١/٢ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ح ٣٦١٢.

الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله! كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير».

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم^(١).

(١) أخرجه مسلم ١/١١٥ كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، ح ١٢٥.

الجاهزية لطاعات وأعمال الجوارح مبنية على حالة إيمانية سامية، وليست فلتة عابرة أو نتاج توجيه مجرد.

لقد خضعت نفوسهم لأمر الله - تعالى - خضوعاً حقيقياً، لا رياء فيه ولا سمعة، ولا دوافع تقبع في دواخلهم سوى حب الله والخوف منه ورجاء ما عنده. هذه هي التربية الإيمانية النافذة، التي تسخر الجوارح وتذل غرور الذات، وتسير بها إلى قلب وقاد، لا يسكن ولا يهدأ إلا بطاعة الله والسعي في مرضيه.

إن الجيل اليوم بحاجة إلى تربية تستهدف القلب، فتقوي إرادته للطاعات، وتقيم توجهه إلى الله، وتثبت استقامته على الحق والهداية.

نريد شباباً إذا أصابته الفاقة وضاق عليه معاشه تذكر قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وتذكر قول الله - تعالى - : ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢] فيلجأ إلى الله وحده يطلبه الرزق، ثم يبذل أسبابه الدنيوية وقلبه متعلق بما عند الله - تعالى - فقط، فلا يلجأ إلى وسائل غير مشروعة، ولا يتعلق قلبه بغير الله تعالى.

ونريد شبابًا إذا ادلهمت عليه الخطوب والمحن، وزُلزِلَ زلزالاً شديداً ما تزيده هذه الخطوب والمحن إلا إيماناً وتسليماً، وتفאוلاً بوعد الله القائل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، فيواجهها، وهو مطمئن القلب ساكن النفس ثابت الجنان، مقبلاً غير مدبر، شجاعاً غير هياب ولا جبان ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

ونريد شبابًا إذا طرقت أبوابه فتن الشهوات صرخ في وجهها قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ فتنخنس شياطينه، وتثبت نفسه، ويتورع عما حرم الله تعالى.

ونريد شبابًا إذا خلا بنفسه، في خلسة من كد حياته تذكر قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿٧﴾ **وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** [الشرح: ٧، ٨]؛ فقام بين يدي الله - تعالى - ناصباً قدميه للصلاة وذكر الله عز وجل.

٢ - إصلاح السلوك بمشاهد الآخرة:

القرآن المكي أفاض أيما إفاضة في الحديث عن اليوم الآخر، ليس على مستوى الإجمال فحسب، بل على مستوى التفاصيل ودقائق المشاهد.

وكثير من الآيات التي صوّرت تفاصيل اليوم الآخر ودقائق مشاهدته جاءت لمعالجة قضية من القضايا. ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ [المطففين: ١ - ١٠]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦] ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحِبُّونَ الْأَمَْالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ

وَأَنى لَهُ الدِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَا يُعَدِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ
المُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي
عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿ [الفجر: ١٧ - ٣٠] ﴾. ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾
فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا ﴿٣﴾ فَأَتْرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ
ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثِرَ
مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّخَبِيرٌ ﴿ [العاديات: ١ - ١١] ﴾. ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ﴿١﴾ الَّذِي
جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي
الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي
تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدِّةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿ [الهمزة: ١ - ٩] ﴾. ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا
مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهُقَهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿ [المدثر: ١١ - ٣٠] ﴾. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ

مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
 تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
 وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ
 لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
 عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا
 ﴿١١﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
 لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ
 قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
 قَوَارِيرَ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا
 كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ
 عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مِنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ
 ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ
 وَحُلُوعًا أُسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ
 جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ٥ - ٢٢].

وغيرها الكثير من الآيات التي عالجت المواقف والسلوكيات
 بالحديث عن تفاصيل اليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر هو إحدى القضايا التي أنكرها مشركو مكة
 بالكلية، فجاء القرآن يدعوهم إلى الإيمان باليوم الآخر كركن من
 أركان الإيمان؛ على وجه الإجمال، لكنه كذلك جاء مريبًا لأهل

الإيمان على استصحاب مشاهد الآخرة في حياتهم اليومية، وفي سلوكياتهم المألوفة. ولذلك كان أثر الإيمان باليوم الآخر واضحاً جلياً على ماجرياتهم اليومية ومواقفهم المحورية، وإلا ما الذي يجعل آل ياسر يتصلبون ولا يلينون وهم يخضعون لعمليات التعذيب الوحشية؛ التي انتهت بمقتل سمية ووفاة ياسر جراء التعذيب؟ إلا الوعد بالجنة مقابل الصبر!

عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنها قالت: (إنما نزل أول ما نزل منه [أي: القرآن] سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية أعب ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَهْيَ وَأَمْرٌ﴾ وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده)^(١).

قال ابن حجر - رحمه الله -: (قولها «حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام»؛ أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٣٤٠ كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ح (٤٩٩٣).

أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها»، وذلك لما طُبِعَتْ عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف^(١).

وفي تشخيص دقيق لأسباب الضعف الإيماني الذي يلمسه ابن مسعود رضي الله عنه في أصحابه من التابعين، يقول: (أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله، وهم كانوا خيراً منكم. قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة).^(٢) فهو رضي الله عنه يشير إلى أن العبرة ليست بكثرة ما يؤدي من الأعمال الصالحة ونوافل العبادات، وإنما بما يختلج في القلوب من ذكر اليوم الآخر، لما سيحدثه من مسارعة إلى الخيرات، وتورع عن المعاصي، ولما سيورثه من اهتمام بعبادات القلب.

هناك العديد من المفاهيم الإيمانية ستترسخ بشكل تلقائي إذا نجحنا في التربية على الإيمان باليوم الآخر؛ كما يريد القرآن الكريم؛ كالخوف من الله، والرقابة الذاتية، ومحاسبة النفس والإحسان إلى الخلق، والتزود من النوافل. ألا ترى أن الله - تعالى - حين عاب على قوم استئذنانهم في التخلف عن القتال وصفهم بأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ٤٤ إِنَّمَا

(١) فتح الباري ٨/٦٥٦.

(٢) حلية الأولياء ١/١٣٦.

يَسْتَعْدِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٤﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

قال ابن القيم - رحمه الله - : (قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمها، وضعفت همته، ووهى باعته، وكلما كان أشد طلباً للجنة، وعملاً لها كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق)^(١).

٣ - إقامة الصلاة المفروضة ثانيه واجب بعد التوحيد:

منذ الدقائق الأولى التي يدخل فيها المسلم في دين الله يأمره النبي ﷺ بالصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها، ثم فرضت الصلوات الخمس في حادثة الإسراء والمعراج. الصلاة من أول ما فرض على المسلمين بمكة، قال الواقدي: (أجمع أصحابنا أن أول من استجاب لرسول الله ﷺ من أهل القبلة: خديجة، ثم كان أول شيء فرض الله من شرائع الإسلام عليه بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان: الصلاة)^(٢).

ونالت الصلاة مزيد عناية إلهية حيث قام جبريل بتعليم النبي

(١) مدارج السالكين ٧٩ / ٢.
(٢) الكامل في التاريخ ٥٧٧ / ١.

ﷺ الوضوء والصلاة، وكانت تعدُّ العمل الأكثر دلالة على صلة الإنسان بربه وحبّه إياه وخوفه منه وتعلُّق قلبه به.

وكان النبي ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا^(١).

قال ابن إسحاق: (وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحّي بعير، فشجّه، فكان أول دم أهرق في الإسلام)^(٢).

ويتملكك العجب حين تتخيّل أولئك الثلّة المؤمنة ﷺ وقد حضرتهم الصلاة، وهم في خوف وسرّيّة، فيتسللون إلى الشعاب والأودية عبر مجموعات صغيرة، يتلفتون يمنة ويسرة، فيقوم أحدهم يرقّب الأوضاع من مسافة؛ ليصفّ الباقيون أقدامهم لله تعالى، خاشعين ذاكرين، ثم يصلي هو نوبته!

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٣/١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٠/١.

إنها مشاهد يخفق لها القلب وترتجف لها الجوارح إجلالاً ومهابة.

قال سعيد بن زيد رضي الله عنه: (استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في بيتٍ مغلقٍ أو شعبٍ خالٍ، ينظر بعضنا لبعض).

وفي رواية للبلاذري أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا، فرادى ومثنى، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة إذ هجم عليهم رجلان من المشركين كانا فاحشين فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة، حتى خرجا فانصرفا^(١).

فلما اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم مقرّاً لدعوته، أصبحت الصلاة أحد الأعمال المقامة فيها.

هذا الجهد والترقب والتخوف والتسلل والتحري.. كله لأجل إقامة الصلاة التي كتبها الله عليهم فرضاً لازماً. إنها التربية على الشعيرة الأساس التي تربط الأرض بالسماء، والعبد بسيدته، والمخلوق بخالقه، فيستمد منها الأمن والقوة والاستقرار والهداية والثبات والتوفيق، ويستمد منها الحياة.

في الوقت الذي وصلت فيه قريش إلى مستوى سيئ من التنكّر لدين إبراهيم عليه السلام، فساءت قيمها وأخلاقها وتصوراتها.. في ذات

(١) انظر: دراسة في السيرة لعهاد الدين خليل ص ٦٣.

الوقت كانت تلك الثلثة تنخلع من الأرض لترتبط بالسمااء فتبني تصوراتها وإيمانها وقيمها وأخلاقها. لقد كانت تلك الصلاة تصنع منهم ذواتاً أخرى وشخصاً غير تلك التي كانت قريش تعرفها وتألفها. كانت تلك الصلاة تبني قيمهم وإيمانهم وتُشربهم الفضائل والمعالي ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولقد كان منظر رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي عند الكعبة مُلهماً لأصحابه مثلما كان موجعاً لقريش.

وحين واجهت المسلمين موجةً قويةً تريد صدّهم عن هذا الدين الجديد الذي غيرهم؛ كانت التربية على إقامة الصلاة هي ذلك السدّ المنيع من الانجراف في هذه الموجة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] وحين كان المسلمون مأمورين بالعفو عن أذى قريش وعدم الاصطدام بهم أو الانتقام منهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]؛ كانت التربية على إقامة الصلاة تسهم بشكل كبير في تخفيف تلك المعاناة والضييم؛ من خلال ترشيد انفعالات المسلمين وتسكين نفوسهم وتهدئة ثائرتهم. لقد كانت إقامة الصلاة - ولا تزال - تخفّف من الضغوطات، وتعيد النفس إلى خطها الانفعالي المعتاد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ

﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿ [المعارج: ١٩ - ٢٣]، ذلك أن الاستقرار النفسي له تأثيره الإيجابي في رفع مستوى التدين والارتقاء في سلم الإيمان؛ الأمر الذي كانت الصلاة تصنعه في نفوس أهلها.

٤ - الذكر والدعاء علامة الإيمان وزاد المؤمنين:

إن ذكر الله - تعالى - يفضل الكثير الكثير من الأعمال الصالحة في الأجر قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذکر الله تعالى»^(١).

كان القرآن المكي يأمر النبي ﷺ بأن يمسح جروحه وآلامه ومعاناته التي أفرزها مقامه في التبليغ والدعوة بذكر الله - تعالى - وتسبيحه، وهي دعوة لأصحابه بأن يكمدوا جراحاتهم الناتجة عن تكاليف الإيمان بهذا البلسم. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ

(١) الترمذي ٤٥٩/٥ كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء، ح ٣٣٧٧.

فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿ [طه: ١٣٠] ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَإِذَا بَرَأَ النَّجُومَ ﴿ [الطور: ٤٨، ٤٩]. ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ
السُّجُودِ ﴿ [ق: ٣٩، ٤٠].

والقرآن المكي يقص من سير الأنبياء ما يدل على اهتمامهم
بالذكر والدعاء؛ كموضع للاقتداء بهم.. ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾
قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا
﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ
سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا
بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿ [مريم: ٧ - ١١] ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ
أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ ﴿ [الأنبياء: ٨٧ - ٩٠].

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [٩٩] وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [١٠٠] رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿ [يوسف: ٩٩ - ١٠١]. ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

ذكر الله - تعالى - ودعاؤه من العبادات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعمال القلب، لما يخالطها من الافتقار إلى الله، والشعور بالضعف أمام الله، واستحضار حال العبودية والخشوع والخضوع والتذلل، ولما يصاحبها أيضاً من الرجاء فيما عند الله أو الخوف من الله تعالى، وغير ذلك من أعمال القلوب التي تقفز بصاحبها إلى عالي المنازل عند الله تعالى.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في فوائد الذكر: (العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الاحسان، فيعبد الله كأنه يراه. ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاده، وقبله قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه. الثالثة عشرة: أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة^(١).

كما أنّهما من الأعمال التي تزكي القلب وتنقي النفس وتصلح السلوك، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللهِ أكبرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وهما يكسبان من يداوم عليهما قوة ونوراً وبهاء، قال الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أجد في الاهتمام بالذكر والدعاء في تربية الناس على دين الله اختصاراً للمسافات، فهو يقوي القلب ويوصله إلى مقامات العبودية، وبذلك فأولويته في المفردات التربوية تسبق أولوية العديد من الأعمال الصالحة.

(١) الوابل الصيب ص ٩٥.

وبعد..

فهذه أهم ما لمستته من مفردات التربية المكية، وأعتقد أنّ الاستفادة منها في تربيتنا للشباب والناشئة من البنين والبنات في هذا العصر سيجعلنا - بعد توفيق الله تعالى - نحصد الكثير من الثمار الإيمانية اليانعة، من الثبات على الإيمان والمصارعة إلى الخيرات والرقابة الذاتية والنفع العام.

المبحث السابع: المربون في العصر الجديد

المربون والمربيات هم حجر الزاوية في العمل التربوي، وهم المباشرون لبناء الشخصيات وتزكية النفوس، وتصحيح الانحرافات، ومن حقهم علينا أن نكون خير مُعين لهم بعد الله تعالى، دعمًا وتشجيعًا وتحفيزًا ونصرة ورعاية، ونصحًا ومشورة وتوجيهًا.

إنَّ المربين والمربيات - كمجموع الناس - ليسوا سالمين من التأثير بالتحويلات الاستراتيجية التي سبق الحديث عنها، والتي أفرزت جيلًا جديدًا ورؤية جديدة، ولذلك وجبت العناية بشأنهم.

في هذا المبحث سأسلط قليلًا من الضوء على مواصفات المربين في العصر الجديد، مع يقيني وعلمي التام أنَّ الحديث عنهم بحاجة إلى حلقات نقاش وورش عمل نخرج منها بمواصفات علمية، وشروط عمل، وطرائق التأهيل والتدريب.

وإذا صار المربون لهم مواصفات محددة وشروط عمل؛ فهذا سيقلص من عدد المربين المعتمدين، لكنه في ذات الوقت سيرفع من قوة الإنتاج المتوقعة منهم، كما سيخرج من هذه الدائرة عددًا لا بأس به من مسمى (المربي)، وهذا لا يعني عدم الاستفادة منه، وإنما يعني صناعة مسارٍ جديد لأولئك الذين لا تتحقق فيهم الحدود المرسومة لمواصفات المربي وشروط عمله.. مسار يساند التربية بشكل أو بآخر.

فما هي صفاتهم في هذه الحقبة الجديدة؟

١ - مربون عبّاد:

أول صفة ينبغي أن تتوافر في المربي أن يكون صاحب عبادة و طاعة، يدفع نفسه للتعبد لله تعالى، بإقامة الفرائض على وجهها الصحيح، وبيادر إلى النوافل والسنن، يغتتم مواسم القُربات، ويكثر من ذكر الله تعالى، وله أوراده اليومية منها، كما له ورده اليومي من كتاب الله تعالى؛ الذي يربي الجيل على أحكامه ومفاهيمه وتلاوته، كثير الدعاء والتبتل، سريع الدمعة رقيق القلب، ورعاً عن المحرمات، وقافاً عند الشبهات، متمثلاً قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشّرح: ٧ - ٨].

وأهم ما يسند هذا المعنى ما قاله الكلبي في تفسيره لهذه الآية: (إذا فرغت من تبليغ الرسالة «فانصب» أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات). وما قاله الحسن وقتادة: (إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك). وما قاله مجاهد: (إذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك)^(١).

إن كثرة التقرب والتعبّد تصنع لدى المربي هالة من النور التي يراها فيه المتربون، ويجدون أنفسهم من خلالها منقادون ومقتدون به في الخير والصلاح وأوجه البر ومعاني الإيمان.

(١) انظر الأقوال في تفسير القرطبي ٢٢ / ٣٦٠.

كثرة التقرب والتعبد هي الدروس الصامتة التي ترسم للناشئة منهج حياتهم الجديد العاشر بالإيمان والطاعة، وإنَّ المترين يستمعون بقلوبهم إلى عباداتك أكثر من استماعهم بأذانهم إلى أقوالك وحديثك.

لقد عرفنا الله - تعالى - في كتابه العزيز قانون القدوة إذ قال - عز وجل -: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ حين أتمَّ إبراهيم - عليه السلام - كلمات الله الموحاة إليه بالإيمان بها وتصديقها بتنفيذها والعمل بها جعله الله إمامًا. أي: أنك أيها المربي لن تكون قدوة ينهل منك الطلاب إلا إذا أتممت كلمات الله بالإيمان والعمل بها.

القدوة ليست شيئًا متكلفًا وليست هي مقدمة، وإنما هي نتيجة طبيعية للتعبد والتذلل لله تعالى، ولتمثل الإسلام في السلوك والمعاملات، وبالتالي سينعكس هذا التمثل على سلوك الطلاب.

والمربي الذي يؤثر على طلابه من خلال سلوكه وأفعاله سيكون طلابه أكثر ثباتًا وتدينًا وتحقيقًا للأهداف التربوية. قال ميمون بن مهران: (لو صلح أهل القرآن صلح الناس)^(١).

(١) أخلاق أهل القرآن ص ١٠٤.

وكثرة التقرب والتعبد هي إحدى النتائج الكبرى والمهمة التي يسعى المربي لتحقيقها في طلابه ومستفيديه، فلا يحسن بحال أن يدعو إلى شيء يكون هو أبعد الناس عنه، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ كما أنها تمثل برهاناً عقلياً على إمكانية تحقق ما يدعو إليه المربي على أرض الواقع.

وكثرة التقرب والتعبد تمثل حصانة إلهية وسياجاً ربانياً من الانتكاسة والنكوص، ومن الحَوْر بعد الكَوْر، فإنَّ المكثرين من التقرُّب والتعبُّد أولياء الله، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصْرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَشْنِ اسْتِعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

وكثرة التقرب والتعبد إحدى ضمانات التسديد في الأقوال والأعمال؛ حيث معية الله - تعالى - الواردة في الحديث السابق،

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٩٢ كتاب الرقاق، باب التواضع ح ٦٥٠٢.

وحيث الفرقان الذي يهبه الله لعباده المتقين، فيميزون به بين الحق والباطل، وبين خير الخيرين وشر الشرين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وكثرة التقرب والتعبد أخيرًا هي الزاد الذي يعده المربي لمنافسة الأتقياء على المنازل العليا في جنات النعيم. نسأل الله أن يتولانا برحمته وبفضله.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبتواضعه إذا الناس يخالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون)^(١).

عبادات المربي وأوراده هي أهمُّ لديه من الانقطاع لتربية الشباب؛ لأنَّ الله - تعالى - يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. فبدأ بالنفس قبل الغير.

(١) أخلاق أهل القرآن ص ١٠٢.

٢ - مربون أصحاب قيم ومبادئ:

المربي ليس وعاءً ناقلاً للقيم والمبادئ إلى الجيل الجديد فحسب، بل هو يتمثلها ويعتز بها ويصنّفها ضمن مكونات شخصيته، ويدافع عنها ويدعو إليها، ويدفع الشبهات عنها.

وهذه المبادئ والقيم لا تُعرَف من خلال الحديث وقت السعة، ولا تعرف في حال الرخاء فحسب، بل تُعرَف في المواقف والأزمات والخلوات، وتكون مصدر إلهام للثبات على دين الله تعالى.

التحولات الكبرى والاستراتيجية كما أنها ذات بصمة على الواقع؛ فإنها كذلك ستضع بصمتها على المربين، لكنهم بفضل الله - تعالى - ثم بفضل اعتزازهم بقيمهم ومبادئهم وتمسكهم بها سيظلون صامدين، قادرين على تحمّل ضغوط الموجات الفكرية والأخلاقية، لا تخطف أبصارهم الأضواء اللامعة، ولا تؤثر عليهم العوارض المستجدة، مثلهم كمثل أصحاب محمد ﷺ حين حصرتهم قريش عام الخندق، فكان هذا الحصار وتلك الشدة والمحنة محلاً للثبات والإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

[الأحزاب: ٢٢، ٢٣]، وحين فتحوا المدائن والأمصار، وصبّت الدنيا ومباهجها عليهم صنوف اللذائذ والمتاع حافظوا على ثوابتهم ولم يتزحزحوا عن قيمهم ومبادئهم.

والمربون ليسوا بمنأى عن تأثير الحضارة الغربية، لكنه تأثير إيجابي يعرف فيه المربون ماذا يصلح لهم فيفحصوه ويستفيدوا منه، وما الذي لا يصلح لهم فيتركوه وينبذوه ويحذروا منه، فليسوا منبهرين بأضواء الغرب وليسوا مهملين لإيجابيات حضارتهم. ولديهم فكرة واضحة وأصيلة في منهج التعامل مع وافدات الحضارة الغربية.

والمربون شريحة من دون الطيبين والأخيار، يُعملون أدوات المنهجية في كل ظاهرة مجتمعية جديدة، فلا يتعاطونها حتى يتأكدوا من سلامتها، كالسياحة الخارجية والاكتتاب في الشركات والمضاربة في سوق الأسهم... وغيرها العديد من الظواهر التي يتميز فيها المربون عن غيرهم بالتدقيق والتمحيص والفحص، والتأكد من جدواها وصلاحيتها شرعاً ومروءة وتذمماً.

والمربون لا ينهزمون أمام الضغوط الاجتماعية المفاهيمية؛ إذ يعرفون مصادر القيم والمبادئ المعرفية، وآليات تقييمها وترتيبها وصناعتها، وما يضادها ويخالفها من أعراف وتقاليد ونظم.

٣ - مربون قرّاء ومثقفون:

حين أراد الله لطلّعة هذه الأمة أن تكون مؤثرة قائدة أنزل عليها كتابه الهادي، فكان أول ما نزل فيه آية تأمر بالقراءة، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، وكان أول مخلوق أقسم الله - تعالى - به هو القلم، قال الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

إنها رسالة في غاية الوضوح، مفادها أن القراءة والاطلاع أحد أهم مؤهلات التأثير والقيادة والتربية، كما أنها اللبنة الأولى في طريق الإصلاح؛ إذ يبدأ طريق الإصلاح من العودة إلى الذات وإصلاحها، يقول الدكتور عبد الكريم بكار: (إنّ المعلم الذي يطور معارفه، ويوسّع دائرة مفهوماته لا يفعل ذلك من أجل طلابه فحسب، وإنما يفعله قبل ذلك من أجل نمو ذاته؛ إذ من العسير أن نفصل بين تطوير الثقافة وتطوير الذات؛ فالمعلم بحاجة إلى المعرفة الواسعة من أجل إثبات وجوده وتحقيق ذاته. وإنّ المعلم الذي يخفق في الاستحواذ على الحد الأدنى من المعرفة التي يحتاجها في عمله؛ لا يخفق في أداء رسالته فحسب، ولكنه يفقد إلى جانب ذلك جزءاً من لياقته الاجتماعية والمهنية)^(١).

(١) بناء الأجيال ص ١١٨.

لقد أمر الله - تعالى - نبيه أن يدعو: رب زدني علمًا. وفي ذات الوقت ذكره - تعالى - بنعمة تعليمه فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فهو فضل عظيم أن يكون المؤثرون والمرَبون والقادة متعلمين وقراء.

وكان الصحابة والتابعين الأجلء على هذا النَّهَم من التعلُّم، وسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاهدة على ذلك، في حياة نبينا صلى الله عليه وآله وبعد وفاته.

قَدِمَ التابعي الجليل مسروقٌ إلى المدينة، فسمع قولَ زيد بن ثابت في مسألة فرضية يخالف فيها قولَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأعجبه، فقيل له: أتترك قول عبد الله؟ فقال: (أتيت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم)^(١). إنه النَّهَم في الاطلاع والتعلم.

المرَبون - أيضًا - مواكبون لما يستجد من المعارف، يطلعون على حدٍّ أدنى منها، ولذلك هم قادرون على الإجابة عن تساؤلات الطلاب وتوجيههم المعرفي. وإنَّ تربية الناشئة تتطلب المزيد والمزيد من الاطلاع والقراءة والتثقيف؛ إذ تكون قاعدة معلوماتية راسخة يُستدعى منها وقت الحاجة، وتبني حصانة فكرية منهجية لدى المرَب من التوجيه الخاطئ المبني على العواطف والانطباعات غير الموضوعية.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٣٧.

والمربون هم المسؤولون عن تثقيف أنفسهم وتعليمها، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، وليست الإدارات التربوية هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن هذه الجزئية، ويقع اللوم في الجهل بالواقع وضعف المعارف على ذات المربي؛ لأنه هو المسؤول عن ذاته، وليس الآخرون. هذا إذا تحدثنا عن مسؤوليات، ولكنه يبقى على الإدارات التربوية أن تسهم في بناء المنهجيات المعرفية - على الأقل - لدى المربين.

ع - مربون يملكون رؤية واضحة:

لم يعد للمربي في زماننا أن يعمل في الأجواء الضبابية. الرؤية الواضحة والتصورات المنطقية ضرورة للعمل التربوي، ووجودها في ذهن المربين مهم في استدامة التأثير والقيادة. ينبغي أن يكون لدى مربي زماننا تصور واضح عن هوية المحضن الذي يعملون فيه، ونوعه، وهوية الإدارة التي ينتمون إليها، والشرائح التي يستهدفونها. كما يجب أن يكون لديهم إجابات واضحة وحقيقية عن الأسئلة الكبيرة: من نحن؟ وماذا نريد؟ وماذا سنكون؟ أي داخل منظومة العمل التربوي.

هذه الرؤية النافذة ستجعل المربي قادرًا على التوجيه الصحيح والمناسب أيضًا، وستجعله قادرًا على ترتيب الأولويات بتمييز،

وإجادة المعالجات الموقفية، وكذلك ستجعله قادرًا على إدارة الأزمات التي تعترض المحضن التربوي، سواء كانت فكرية، أو اجتماعية، أو غير ذلك. الرؤية الواضحة بمثابة البوصلة التي تساعدك في تحديد اتجاهك الصحيح في كل ذلك، إنها الضوء المسلط على الطريق الصحيح.

الرؤية النافذة والواضحة من محفزات العمل؛ إذ تجعل المربي ينطلق في تفاصيل إجراءاته ونشاطاته وهو يرى النتائج والنهيات المشرقة، فيزداد حماسًا كلما تقدم خطوة إلى الأمام. وهي من وسائل الثبات والاستمرار على الطريق، وأحد المساعدات المهمة للنجاح وتحقيق الأهداف المنشودة. والمربون الذين يفتقدون لهذه الرؤية ستنقطع بهم الحبال يوماً ما، بشكل أو بآخر؛ لأنهم فقدوا النور الذي يستضيئون به في الطريق، وفقدوا البوصلة التي تحدد لهم الاتجاه، ولم يعد ثمَّ إلا لجة البحر المتلاطم، أو وعورة المسالك الجبلية.

ه - مربون لديهم قدرات تواصل عالية:

التربية هي في أغلب عملياتها تواصل. ويمثل استيعاب الطلاب والحوار معهم ومناقشتهم، وتعديل سلوكهم وتوجيههم والإنصات إليهم.. إلى غير ذلك من العمليات إجراء تواصلية.

والقرآن الكريم أعلى من شأن هذا الأمر، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، بل جعله في المقدمة من متطلبات التأثير والقيادة.

التربية هي تواصل مع المشاعر والوجدان والعقول، وهي ألوان مختلفة بحسب طبيعة الذين يتعامل المربي معهم، ولكل لون تدرجاته الفاتحة والغامقة، إنها عمليات حساسة للغاية، تحتاج إلى ماهر كمهارة مهندس الصوت القابع خلف جهاز ميزان الصوت، وكل أداء له مقاديره من الوزن والترتيب الدقيقين.

وأجيال اليوم يتنافس على التواصل معها الكثيرون؛ في القنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعي والفعاليات الواقعية، والمربي إذ يدخل إلى ساحة المنافسة التواصلية فإنه بحاجة إلى القدر الذي يجعله قادرًا على الفوز على منافسيه في تواصله مع هذه الأجيال.

من المهم - اليوم - أن يجيد المربون مهارات التواصل، كالحوار والإقناع، والتأثير والتوجيه، وإدارة الاجتماعات، وإدارة المجموعات، وتحليل الشخصيات، وفنون المعاشية والمصاحبة، وغير ذلك مما يحتاجه المربي في تواصله مع الطلاب.

والنفس البشرية تفسّر ضعف التواصل بإحدى ثلاثة أمور؛ ضعف اهتمام المرسل بالمستقبل، أو ضعف في المرسل يجعله غير كفاء للتواصل مع المستقبل، أو شخصية غير مقبولة لدى المستقبل جعلت الآخرين لا يتواصلون معه بفاعلية. وهذه الثلاث التفسيرات التي يشعر بها البنون والبنات كفيلة بأن تجعلهم يعزفون عن محاضن التربية ويزهدون في مربيهم.

إنّ تعلم مهارات التواصل يمثل تحدياً تربوياً اليوم، ليس على مستوى التعامل الفردي فحسب، بل ويتعدى إلى نوع البرامج المقدمة لهم؛ إذ يجب تقديمها في مناخ تفاعلي تواصلية بامتياز، بعيداً عن أحادية التواصل، إلا بقدر الحاجة.

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١). ترسيخ المفاهيم بحاجة إلى لغة تواصل جيدة أكثر من الحاجة إلى البيان المعرفي للمفهوم.

(١) أخرجه البخاري ٩١/٤ كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٥٩٩٩هـ.

٦ - مربون مبدعون:

الإبداع السمة الأبرز للنجاح في هذا العصر؛ إذ تقوم الآلة الابتكارية بتكسير الجمود وتفتيته وطرده خارج المنافسة.

الإبداع عند المربي يعني الانعتاق الذهني من التصورات السائدة والأنماط المألوفة في التقنيات والوسائل التربوية والقوالب التواصلية، إنه التحليق في عالم الأفكار الرحب، واستلهام النماذج. المربون في هذا العصر أحوج الناس إلى أن تكون لديهم عقول إبداعية، لعظم المهمة الملقاة على عواتقهم، والتي تتطلب جهداً ذهنياً شاقاً؛ حيث يمس عملهم التربوي العقول الجديدة فلزم عليهم الابتكار والابداع.

وأحد أهم فوائد الإبداع هو اختصار المسافات؛ حيث تتميز المشاريع والفعاليات الإبداعية بسرعة تحقيق النتائج والأهداف، ومن اللازم للتفكير الإبداعي أن يسبقه تفكير ناقد، ستكون من مهمته اطراح كل ما لا يفيد في تحقيق هذه النتائج والأهداف، لذلك فإنَّ المربي بحاجة إلى ذلك؛ إذ يقوم بتصميم البرامج والمشاريع التربوية.

ونحن نعيش عصر الإبداعات والانعتاق من المؤلف، وطلابنا أصبحوا ملولين من نمطية البرامج المألوفة، فصار الإبداع مطلباً مهماً للمربي، لتلبية حاجات الطلاب أيضاً.

كما أنّ إبداع المربين في برامجهم ومشاريعهم سينعكس - بلا شك - على تربية الطلاب على الإبداع والتحرر العقليين؛ حيث تتشكل مع مرور الزمن وببطء العقول الإبداعية والابتكارية.

ومن السهولة أن تستنسخ ما كانت عليه مؤسسات العمل التربوي قبل سنوات وعقود من طرائق وأساليب، لكنك في نهاية المطاف ستجد نفسك بعيداً عن أعماق المستفيدين، وبعيداً عن التأثير عليهم.

إنّ تنمية حاسة التأمل والتفكير الإبداعي مطلب تدريبي لتخريج المربين، وشرط في مؤهلات التربية، ربما.

٧ - مربون مفعّلون للطاقات:

لم يعد المربون موجهين للطاقات فحسب، بل عليهم اليوم أن يكونوا قادرين على تفعيل الطاقات والزجّ بها في أتون التجارب العملية التي تنضجها.

لقد بات هذا العمل أحد واجبات التربية. هذا زيد بن ثابت رضي الله عنه أتى به النبي صلى الله عليه وآله مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة. قال: فقرأت على رسول الله صلى الله عليه وآله فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلم لي كتاب يهود؛ فإني والله لا آمنهم على كتابي»، قال: (فتعلمته. فما

مضى لي نصف شهر حتى حذقته، وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم^(١). لم يسيطر الخوف على نبينا ﷺ إذ يأمر زيد بتعلم اللغة ومطالعة كتبهم. والعجيب أن زيد بن ثابت تعلم لغتهم في مدارسهم^(٢).

ينبغي أن يكون المربي على قدرٍ من الشجاعة في تقديم الطلاب إلى العمل والنفع والخدمة، وعلى قدرٍ من الثقة بهم أيضاً، وأن يتحمل تبعات هذه الشجاعة وهذه الثقة، من الأخطاء والتجاوزات والتأثيرات السلبية، والتي هي فرصة جيدة للتوجيه التربوي؛ قد يفوق أثرها أثر التوجيهات المجردة.

بعض المربين - وهم قليل - تنحصر أهدافهم في استنساخ شخصياتهم التربوية لطلابهم، دون شعور منهم بذلك، ولا رغبة أيضاً، فيصبحون بمثابة خلية انشطرت إلى خليتين تحملان نفس الصفات، ثم انشطرت الخليتان إلى أربع خلايا تحمل نفس الصفات، ثم انشطرت الأربع إلى ضعفها، وهكذا دواليك حتى أصبح لدينا عدد من الطلاب هم نسخٌ مكررةٌ من شخصية واحدة. وغالبًا ما تكون عاقبة هذا الاستنساخ غير مرضية؛ لأنها كانت تركز على الأشكال ولا تركز على الجوهر.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٢٨.

(٢) الطبقات الكبرى ٥/٣٠٨.

والمطلوب من المربي أن يكون بمثابة القاطع الكهربائي، الذي يطلق التيار الكهربائي على كافة الأجهزة والأدوات، بتيار واحد، فيقوم كل جهاز بعمله المناسب له، تحت تأثير التيار المنبعث عبر القاطع، فأجهزة التبريد تقوم بالتبريد، وأجهزة التسخين تقوم بالتسخين، وهكذا. هذا هو أقرب مثال لدور المربي في المحضن التربوي يحضرني الآن.

إنَّ استشعار المربي لكون التفعيل صفة لازمة له يعني تحويل الجيل الذي بين يديه من الحالة الأفقية إلى الحالة الرأسية والتي تحمل معاني العمق والثبات وقوة التأثير، وتعني انتشاله من خانة الصفر إلى خانة الأعداد الطبيعية ذات التأثير الإيجابي.

٨ - مربون قادة:

وأعني بالقيادة هنا التأثير، فإنَّ جوهر القيادة يكمن في التأثير، وليس شرطاً أن يكون القائد مديراً.

والتأثير هو مفتاح التغيير الذي ينشده المربون في عملهم التربوي. وهذا لا يعني إمطة الجندية والانضباط عن كاهل المربي تجاه إدارته التربوية، وإنما عليه أن يصنع التوازن في انتمائه بين الجندية والانضباط والطاعة من جانب، وبين الفردية والاستقلال والإبداع والمبادرات من جانب آخر.

المربي الجيد هو الذي يقدم المبادرات البناءة والمحورة إلى إدارته، فهو بذلك شريكٌ في صنع القرار؛ إذا كان صاحب مبادرات. والمربون الذين لا يحبون الخروج من السلبية، ولا يملُّون القعود في صالات الانتظار سيظلون عبئاً على المؤسسة التربوية.

٩ - مربون منتمون:

كما أنَّ المربي اليوم ينبغي أن يتمتع بسمته القيادي، وبروحه المتوهجة، وبمبادراته الإيجابية، فهو أيضاً يتمتع بعلاقته الإيجابية مع منظومة العمل الحاضنة له؛ إذ لا يمكن التقدم خطوات نحو النجاح دون أن يسيطر نظام المؤسسة على جميع الأفراد، ودون أن تسود بينهم لغة تواصل راقية، تتحقق بها أهدافهم المشتركة.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ على هذا المستوى من الشعور بالانتماء، إلى الحد الذي يجعل حذيفة بن اليمان، وهو على مقربة من أبي سفيان قائد جيش المشركين في الخندق، وعلى مرمى سهامه.. الحد الذي جعله يحجم عن هذا الفعل، امتثالاً لنهي النبي ﷺ له عن إحداث أي شيء، حتى لو كان في ظاهره النفع والصالح.

إنَّ روعة المربي القائد تكتمل في قدرته على التواصل الإيجابي مع منظومة يشعر بدفء التفافها حوله، يجللها الحوار والانضباط، وفي كونه فرداً داخل تلك المنظومة، يحقق أهدافها ويلتزم بلوائحها.

قائمة المراجع

- (١) ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ.
- (٢) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية.
- (٣) ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، ت: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- (٤) ابن القيم، الوابل الصيب، ت: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- (٥) ابن القيم، مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
- (٦) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٤٠٨هـ.
- (٧) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- (٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: إحسان عباس، دار صادر.
- (٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى (كتاب الطبقات الكبير)، ت: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ.

- ١٠ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م.
- ١١ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الحديث، ١٤١٤هـ.
- ١٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ.
- ١٣ ابن ماجه، السنن، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٤ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ١٥ ابن هشام، السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ١٦ أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٧ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ت: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨ أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر.

- ١٩) الأجرى، أخلاق حملة القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
- ٢٠) الأجرى، الشريعة، ت: د. عبد الله الدميحي، دار الوطن، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
- ٢١) أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، ترتيب صالح الشامي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
- ٢٢) البخاري، الجامع الصحيح، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- ٢٣) البغوي، معالم التنزيل، ت: محمد النمر، د. عثمان جمعة ضميرية، سلمان مسلم الحرس، دار طيبة، الإصدار الثاني، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ.
- ٢٤) الترمذي، الجامع الصحيح، ت: أحمد شاكر، دار عمران.
- ٢٥) الجزيرة، موقع الجزيرة نت.
- ٢٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام)، ت: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ.
- ٢٧) الدارمي، السنن، ت: مصطفى ديب البغا، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

- (٢٨) الذهبي، تاريخ الإسلام، ت: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ٢٠١١م.
- (٢٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة، ١٤٠٩هـ.
- (٣٠) الذهبي، ميزان الاعتدال، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة.
- (٣١) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ.
- (٣٢) الشافعي، الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية.
- (٣٣) عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٣٥هـ.
- (٣٤) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
- (٣٥) عبد الكريم بكار، بناء الأجيال، مجلة البيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- (٣٦) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشر.

- (٣٧) فايز الزهراني، مثنان، مركز البيان للبحوث والدراسات، ١٤٣٧ هـ.
- (٣٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية.
- (٣٩) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، ١٤٠٠ هـ.
- (٤٠) قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب، تقرير وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، التقرير الأول ٢٠١٥ م.
- (٤١) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ت: أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، الطبعة الخامسة، ١٤١٨ هـ.
- (٤٢) اللجنة العليا للتنسيق بين القنوات الفضائية العربية، البث الفضائي العربي، التقرير السنوي ٢٠١٥ م، إصدارات اتحاد إذاعات الدول العربية.
- (٤٣) ماجد الغامدي، الإعلام والقيم، مؤسسة خلوق، ٢٠٠٩ - ١٤٣٠ هـ.
- (٤٤) مجلة الجامعة العراقية، ع(٢٨/١).
- (٤٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- (٤٦) مركز البحوث والدراسات، هروب الفتيات، الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ.

- ٤٧) مركز دراسات الوحدة العربية، الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- ٤٨) مسلم، المسند الصحيح المختصر من السنن، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، توزيع دار الكتب العلمية.
- ٤٩) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- ٥٠) النغمشي، المراهقون.. دراسة نفسية إسلامية، دار المسلم، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
- ٥١) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٥٢) وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية، دار الفكر، ٢٠١٣م.

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
٥	مقدمة الطبعة الرابعة
٧	مدخل
١٣	المبحث الأول: الجيل الجديد
٤٧	المبحث الثاني: الشواهد التاريخية للإبداع الدعوي والتعليمي
٨٩	المبحث الثالث: خطوط عريضة
١٢١	المبحث الرابع: مع المحاضن التربوية
١٣٩	المبحث الخامس: ركائز النجاح في المحاضن التربوية
١٧٩	المبحث السادس: العودة إلى التربية المكية
٢١٥	المبحث السابع: المربون في العصر الجديد
٢٣٥	قائمة المراجع
٢٤٣	فهرس المحتويات

